لماذا نؤمن بالله

دليل مختصر إلى علم الإيمان

■ ريتشارد دوكينز ■

اندرسون جونيور   كلير أوكوفر





ترجمة

ابراهيم جركس





لماذا نؤمنُ بالله (الآلهة)؟
دليلٌ مختصرٌ إلى «علم» الإيمان

اندرسون توماسون جونيور

كلير أوكوفر

تَرْجَمَةُ: إبراهيم قيس جركس



منشورات تانيت

دمشق - بروكسل

الطبعة الأولى: 2023

تانيت ليست دار نشر ربحية بل هي مشروع تعاوني من نخب ثقافية عربية وغربية مهمته نقل الثقافة الأخرى والتراث الفكري إلى العربية لهدف انساني توعوي يجسر الهوة بين مجتمعاتنا العربية ويساهم في معالجة بذور التطرف وتجفيف منابع الإرهاب.

لا تنشر الدار إلا ما هي مقتنعة به وتتبناه لذا نحن لا نتبنى شعار الهروب الذي يعتبر الآراء الواردة هي ليست آراء الدار بل هي أفكارنا 100 %

شعارنا

الثقافة هي ملك لكل الشعوب وسننقلها للعربية لنرتقي.

ترفض الدار جميع قوانين الاحتكار العالمية وتنظر إلى التراث الثقافي بوصفه ملكاً للتراث الإنساني، إذ لا يحق لأحد احتكار أي عمل مؤلف أو مترجم طالما أن الغاية غير ربحية تجارية، وكون القوانين في سوريا، حيث انطلقت الدار، ترفض كل أشكال الاحتكار، فنحن ننشر كتبنا مقدمة كتبرع من مترجين ومؤلفين لتكون مفتوحة أمام كل قارئ وباحث بجميع إصداراتها ما عدا المطبوع ورقياً؛ إذ تحتفظ دار تانيت فقط بحقوقه حتى لا يتم استغلاله تجارياً.

لماذا نؤمنُ باللّٰه (الآلهة)؟

دليلٌ مختصرٌ إلى «علمِ» الإيمان

أندرسون توماسون جونيور
كلير أوكوفر

تَصْدِيرٌ: بقلم ريتشارد دركينز

تَرْجَمَةُ: إبراهيم قيس جركس



2023

صورةُ الغلاف

هذه الصورةُ التي التقطتها وكالة ناسا لسديم اللولب هي عبارةٌ عن صورة مُحَسّنة بالألوان عن الصور المأخوذة من تلسكوب هابل ومرصد قمّة كيت الوطنيّ في أريزونا، حين ظهرت لأوَّل مرّة «كصورة اليوم لعلم الفَلَك» لوكالة ناسا في 10 مايو 2003، نَتَجَ عنها عددٌ من رسائل البريد الإلكتروني التي سمّتها «بعين الله»، مع ادّعاء البعض أنّ رؤيةَ الصورة قد جَلَبَتْ الكثير من المعجزات.

تصديرٌ

بقلم ريتشارد دوكينز

في واحـدٍ مـن أهـم التصريحـات في التاريـخ، يقـصر كتـاب «أصـل الأنـواع» نقاشـه عـلى التطـور الإنسـانيّ عـبر نبـوءة مختـصرة ومقتضبـة: ((سَيُسَـلَّط الضـوء عـلى أصـل الإنسـان وتاريخـه))، لكـن قليـلاً مـا يتـمّ اقتبـاس العبـارة التـي تبدأ بهـا هـذه الجملة: ((في المسـتقبل البعيـد أرى حقـولاً واسـعةً ومفتوحـةً أمـام أبحـاث أكثـر أهميَّـة؛ إذ إنَّ علـمَ النفس سـيقوم على أسـاس جديـد تمامـاً))، إنّ د. تومسـون هو أحد علـماء النفس التطوّريـين الذيـن يجسّـدون تحقيقاً لنبـوءة داروين، وهـذا الكتاب يدور حـول الدوافع التطوّريَّـة للدين.

لقـد فهـمَ داروين -مع أنّـه كان متدينـاً خلال فترة شـبابه- الدافـع الدينيّ، كان مُحِسِـناً لكنيسـة الفجر، ويرتاد وأفراد عائلته تلك الكنيسـة بشـكلٍ متكرّر كلّ يوم أحد (ثمّ اكتفى لاحقـاً بإيصـال عائلتـه إلى الكنيسـة ثم يُكمِلَ مسـيره بعـد أن يدخلوهـا)، كان يعُدّ نفسـه لحيـاة الكهانـة، وكان يتلقّـى تدريبـه مـن أجل ذلـك، وكان كتـاب وليام بيـلي «اللاهوت الطبيعـيّ» كتابـه المفضّـل قبل تخرّجه، لقـد أصاب داروين جواب «اللاهـوت الطبيعيّ» بمقتـل، لكنّه لم يفقد انشـغاله بسـؤاله: مسـألة وظيفـة الدين.

ليس من المفاجئ أنّ مسألةَ وظيفة الدين كانت مركز اهتمامه، لماذا يحمل معظم الناس، جميع الناس تقريباً، معتقدات دينيَّة؟ «لماذا» يجب أن تُفهَمَ في سياقٍ وظيفيّ خاص بِتنا ندعوه اليوم بالسياق الداروينيّ Darwinian.

والآن لنضع السؤال الداروينيّ ضمن سياق معاصر: كيف يساهمُ الدين في بقاء ونجاة الجينات التي تعزّزه وتروّج له؟

تومسون من كبار مناصري مدرسة «النتيجة الثانويَّة» الفكريَّة، فالدين بحدّ ذاته لا يتمتّع بأيّ قيمة بقائيَّة، بل إنّه «نتاج ثانويّ» لميولنا التطوريَّة.

«الأطعمة السريعة» هي السِّمَة العامّة لهذا الكتاب، فإذا فهِمتُم سيكولوجيَّة الأطعمة السريعة، ستفهمون سيكولوجيَّة الدين، السكريات هي مثال آخر عن فكرتنا، كان من المستحيل بالنسبة إلى أسلافنا القدماء الاكتفاء من السكريات، لهذا السبب ورِثنا عنهم توقَنا المفتوح واللانهائي للسكر، والآن قد أصبح من السهل الحصول عليه، فبات يضرّ بصحّتنا.

هذا التوق الكبير للمأكولات السريعة هو نتيجة ثانوية طبيعيَّة، وقد بات يشكّل الآن تهديداً خطيراً على صحّتنا، لأنّنا لم نتحكّمْ بهذا التّوق الشديد ونسيطر عليه، فإنّه سيؤدّي إلى مشاكل جدّيَّة تضرّ بصحّتنا لم يواجهها أسلافنا من قبل... الأمر الذي يوصلنا إلى موضوع الدين.

يفسّر لنا ستيفن بِنكر، وهو عالمٌ سيكولوجيٌّ تطوّريّ رائد في مجاله، حبّنا للموسيقا في سياق مماثل، إنّه «نتيجة ثانويَّة»، فهو يقول إنّ الموسيقا ((كعكة سمعيَّة لذيذة، مزيج رائع مؤلّف ليُدَغدِغَ المناطق الحسّاسة في ستّ مِنْ مَلَكاتنا العقليَّة على الأقلّ)) بالنسبة إلى بِنكر، إنّ الدَغدَغَةَ الفائقة لَمَلَكاتنا العقليَّة هي نتيجة ثانويَّة للموسيقا مرتبطة عادةً بعمليَّات الدماغ المعقّدة لتمييز الأصوات ذات المعنى (اللغة، على سبيل المثال) عن الضجيج والضوضاء.

إنّ نظريَّـةَ تومسـون في الأطعمة السريعـة للدين تؤكّد تلك الافتراضات السـيكولوجيَّة التـي يمكن تسـميتها اجتماعيَّـة Social: ((آليَّات تكيّف سـيكولوجيَّة تطوّرت لمسـاعدتنا علـى توجيـه وإرشـاد علاقاتنـا بالآخريـن، وللكشـف عـن الوكالـة الغيبيَّـة والقصديَّـة، ولتوليـد شـعور بالأمـان والطمأنينـة بداخلنا، هذه الآليَّـات خُلِقَتْ في العالمَ غيـر البعيد في وطننـا الأم أفريقيا)).

إنّ الفصـولَ المتتابعـةَ في كتـاب تومسـون تحـدّدُ سلسـلةً مـن المَلَـكات العقليَّـة المتطوّرة التـي اسـتغلّها الديـن، وكلّ واحدة من هـذه المَلَـكات مُعَنوَنة بعبارة مُقتَبَسـة مـن الكتاب المقـدَّس مثـل ((خُبزَنـا كَفاف يومنـا)) و((خَلّصنا مـن الـشرّ)) و((لِتكُن مشـيئَتُكَ))، إلا أنّ هنـاك صـورةً أكثـر وضوحـاً وجاذبيَّـة تكمـن هنـا: تصـوّر طفـلاً في الثانيـة مـن عمره يرفـع يديـه إلى الأعـلى ويمُـدُّ جسـده نحوك رغبـةً منه بـأن تحمله وتُداعبـه؛ إنّـه يرفع يديه فـوق رأسـه ويسـتعطفكَ متوسّـلاً، والآن تصوّر أتبـاع كنيسـة العَنـصَرَة Pentecostal الذيـن يتحدّثـون لهجـات ولغـات غير مفهومـة، فالعابِـد منهم تـراه يرفع يديـه إلى الأعلى فوق رأسـه، مسـتعطفاً الله بالطريقة نفسـها التي يسـتعطف بهـا الطفل الصغيـر: ((ارفَعني واحضُنّي)).

قـد نفقـدُ صورتنـا البشريَّـة عنـد المـوت، قـد نخسر علاقاتنـا الشـخصيَّة، عـن طريق سـوء التفاهـم أو البُعـد، لكـنّ اللهَ موجـودٌ دومـاً لأجلنـا.

بالنسـبة إلى أغلبنـا، قـد تبـدو تلك الإشـارة أو حركات مَـدّ الأيدي إلى ما فـوق الرأس غبيـة وسـخيفة، وبعـد قراءتنا لكتاب تومسـون هذا سـنتمكّن مـن رؤية الموضـوع بجلاء ووضـوح أكـبر، فالأمر ليس سـخيفاً فحسـب، بل طفوليَّـاً أيضاً.

ثمّ هناك توقنا لكشف يَد الوكالة agency المتعمّدة والقصديَّة.

لماذا تخطئ كثيراً بين الظّلّ والسارق، ولا تخطئ بين السارق والظّلّ؟

فـإذا سَـمِعتَ بابـاً يخبُـط، لمـاذا تتسـاءل دوماً «مَـنْ» الـذي أغلَقَـه بقـوّة قبـل أن تَضَعَ

في اعتبـارك احتـمال أن يكـونَ السـبب الريـح أو سـارقٌ مـا، لماذا يُصـاب الفتـى الصغـير بالرعـب والفَـزَع إذا رأى جـذع شـجرة يتحـرّك خارجـاً ويحتَـكّ بالنافـذة ليـلاً؟

إنّ أداةَ كشـفِ الوكالـة الفَعّالـة والنشـطة جداً قـد تطـوّرت في أدمغة أسـلافنا البدائيين نتيجة المسـتويات الخطـرة المختلفة والمتفاوتـة، فصوتٌ خفيف بين الأعشـاب الطويلة على الأرجـح أنّـه صـوتُ الريـح أكثر مـن احتمال كونـه صوت حيـوانٍ مفـترس، لكـنّ الثمنَ الناجـمَ عـن الخطـأ في الحسـاب باهـظٌ جـداً، الـوكلاء أو العمـلاء Agents، كالحيـوان المفـترس أو السـارق، قـد يكونـون قَتَلَـة وفتّاكـين؛ لـذا من الأفضـل أن نضعَ في الحسـبان الخِيـار غـير الـوارد أو غـير المرَجّـح إحصائيّاً. (داروين نفسـه تطـرّق لهذه النقطـة وتحدّث عنهـا، مـن خـلال حكايـة فكاهيّة عـن ردّة فعـل كلبه تجـاه المظلّة).

يلاحـق تومسـون الفكـرة -حساسـيتنا الفائقة نحو الـوكلاء أو العُمَـلاء حيث لا يكون هنـاك أيّ منهـم- ويقـدّم لنا تفسـيره الأنيـق لإحدى أهَـمّ التحيّـزات السـيكولوجيّة التي يقوم عليهـا الدين.

إنّ انشـغالنا الداروينـيّ بموضـوع النَسَـب والقرابـة هـو أمـرٌ آخـر، عـلى سـبيل المثال: نلاحـظُ في الـتراث الرومـيّ الكاثوليكـيّ أنّ الراهبـاتِ «أخـوات» أو حتـى «أمّهـات»، والقساوسـة «آبـاء»، والرهبان «أخـوة»، والكاردينال الأكـبر «بابـا، أو الأب المقدّس»، والديـن بحـدّ ذاتـه يشـار إليه بوصفـه «الكنيسـة الأم».

أجـرى د. تومسـون دراسـةً خاصّةً عـلى الانتحاريين الذيـن يفجّرون أنفسـهم، ولاحَظَ كيـف أنّـه قـد تمّ توظيـف سـيكولوجيّة القرابـة في تجنيدهـم وتدريبهـم: المجَنِّـدون الذين يمتلكـون كاريزمـا قياديّـة اسـتثنائيّة، والمُجَنَّـدون المتدرّبـون هُـم أقـارب مزيّفـون، أخوة خياليـون مسـتاؤون من طريقـة معاملة إخوانهم وأخواتهم من المسـلمين، وهُـم منفصلون عـن أقاربهـم الفعليـين، والهـدف وراء طَلَبِهـم للشـهادة ليـس مجـرّد خيال جنسـيّ بغرض الحصـول عـلى عَـدَد مـن الحُور العـين في الجنّـة، بـل فرصة لمنـح إخوانهـم بطاقـات مجّانيّة لدخـول الجنّة.

نقطـة بعـد أخـرى، مكـوّن مـن مكوّنـات الديـن بعـد آخـر -عبـادة المجتمـع، الطاعة للسـلطة الكهنوتيَّـة، الطقـوس والشـعائر- جميـع هـذه المسـائل يعالجها تومسـون بشـكلٍ معمّـق، وكلّ نقطـة يتناولهـا تصيـب كَبِـدَ الحقيقة.

إنّ آنـدي تومسـون مُحـاضِرٌ جـريءٌ ومُقنِـع، كـما أنّـه مُتَأَلِّـقٌ في كتاباتـه، وهـذا الكتاب القصـير والجامـع سـتقرأه بسـهولة ويُسر، وهـو عبارة عـن وجبـة خفيفـة غنيَّـة، تتناولها باستسـاغة وتتذكّرهـا لفـترة طويلة.

مُقدّمَة

قمتُ بتأليفِ هذا الكتابِ كصدى لأحداث الحادي عشر من أيلول، كان ابني ماثيو موظّفاً متدرّباً في مبنى مجاور لبُرجَي التجارة العالَمِين، وقد شَهِدَ الحادثة بأمّ عينه، أمّا ردّةُ فعلي على موته الوشيك فتمثَّلت في دراستي للهَجَمات الانتحاريَّة الإرهابيَّة.

لستُ غريباً عن النزعة التدميريَّة التي يتميّز بها الإنسان، فمِهنَتي كطبيب نفسيّ مُتَخَصّص بالطب الشرعيّ قَدّمَتْ لي نظرةً عميقةً إلى أعماق الإنسان العنيف، وطوال عدّة سنوات، كنتُ جزءاً من مركز دراسة التفاعلات بين العقل والجسم الإنسانيّ بجامعة فيرجينيا؛ مجموعة فريدة من مجالات متعدّدة الاختصاصات مؤلّفة من متخصّصين في الصحّة العقليَّة، ودبلوماسيين، ومؤرّخين، عثر عليهم الطبيب النفسيّ فاميك فولكان، سافروا إلى مختلف النقاط والأماكن الساخنة عبر العالم لدراسة الصراعات الحادّة الناشبة هناك وتحليلها.

لكن على الرغم من عَمَلي المِهَنيّ وخبرتي مع المجتمعات المصدومة والمنكوبة، فخلال مسيرة دراستي للإرهاب الانتحاريّ اكتشفتُ عالَماً جديداً وواسعاً من الأفكار والدلائل حول العقل البشريّ، وخصوصاً حول علاقته بالدين والتديّن، كما أنّ الكتبَ والمقالاتِ التي نشرتها كانت ذات طابع أكاديميّ، بعضها كانت أسهل هضماً من

الأخرى، وقد اكتشفتُ عدم وجود مصادر أو مراجع محدّدة تتناول هذه الأفكار المثيرة للاهتمام بطريقة سهلة ومُقنعة بالنسبة إلى القارئ العاديّ أو غير المتخصّص، وهذا ما أحاول فعله هنا.

لم يسبِقْ أن بدا الدين منطقيّاً بالنسبة إليّ من قبل، لكن على غرار جميع الأبناء الأبرار كنتُ أحترمُ معتقدات الكبار وأسايرهُم، فإذا بَدَت صحيحة بالنسبة إلى هؤلاء الكبار الذين كنتُ أحترمهم وأجلّهم، والذين كانوا يعرفون العالَمَ والحياة جيداً، فمن الأفضل أن أنضمّ إلى موكبهم، ومع أنّي قلتُ لهم إنّي آمَنت، إلا أنّه كان هناك بعضُ الامتناعِ العاطفيّ عن هذه المعتقدات.

الغناءُ ضمن كورس مع أصدقائي مَنَحني سعادةً لا تُوصَف في مساءات أيّام الأربعاء وصباحات أيام الأحد، مع أنّ التراتيلَ والترانيمَ المشيخيَّة التي كنّا نستخدمها كانت تبدو كترانيم رثاء جنائزيَّة، فلا بأس من بعض الموسيقا الدينيَّة الجيّدة، ومازالت مقطوعة هانِدل «المسيح» تحرّك مشاعري حتى اليوم.

إنّ مهنتي كمعالج نفسيّ ذي ميول إلى مدرسة التحليل النفسيّ عرّفتني وساعدتني على الاطلاع على كتاب سيغموند فرويد «مستقبل وهم»، وقد ساهمَ فرويد بالكثير في فهمنا للأسباب التي تدفَع العقل البشريّ لخَلق الأديان والمعتقدات الدينيَّة، لكنّه مازال بعيداً تماماً عن تقديم تفسير كامل لنا.

كوني على اطلاع مُسبَق بالمذهب الجديد لعلم النفس التطوّري، وَجَدتُ -خلال دراستي للإرهاب الانتحاريّ- أنّ أعمالَ باحثين وعلماء أمثال سكوت أتران، جيمس بيرينغ، وباسكال بوير، وستيوارت غوتيير، وريتشارد سوسيس، ولي كيركباتريك بمنزلة وَحي، لقد درسوا الظاهرةَ الدينيَّةَ وفهموا أساسها تماماً، أو ربّما اقتربوا من ذلك كثيراً، وقد ألهَمَ عملهم بحثي الثلاثي وتحليلي للهجمات الانتحاريَّة.

صيغةٌ زئبقيَّةٌ مائعةٌ للإرهابِ الانتحاريّ، مدعومةٌ بالدليل القاطع، على النحو الآتي: عنف تآزريّ-تآلفيّ برابطة ذكوريَّة، مصحوبة بهَجَمات قاتلة وغارات فتّاكة ضدّ الأبرياء، قديم قِدَمَ جنسنا البشريّ، بل أقدم.

تلك القابليَّةُ مغروسةٌ ومتجذّرةٌ عند جميع الذكور، فالقابليَّة للانتحار مُتَجَذِّرَة فينا جميعاً، عند الذكور والإناث على حَدٍ سواء، ويقترح الدليل وجود نوعين من الإمكانيَّات الانتحاريَّة المتطوّرة: كَفاءة سلبيَّة شاملة ومساوَمة انتقاميَّة، الأولى تنبع من الشعور بالفَدَاحَة والجَسامَة، كما أنَّها تُحَفِّز الإرهابيَّات الانتحاريَّات من الإناث، كالأرامل والمنبوذات، أمّا الثانية فهي ميزَة متجذّرة لدى ذكور الإرهابيين وتتولّد من الشعور بالذّل والمَهانة والضعف. ولكون الدين بنية ثقافيَّة؛ أي نتاج العقل البشريّ، فإنّ أغلبَ التكيفات والتلاؤمات الإدراكيَّة المعرفيَّة المتطوّرة التي تولّد معتقدات دينيَّة يمكن استغلالها وتوظيفها للتشجيع على الإرهاب الانتحاريّ، وهذا ما يجعل الدين أيديولوجيا بالغة القوّة يمكنها من حينٍ لآخر استغلال القدرات المتطوّرة للقيام بالهَجَمات القاتلة والانتحار، جميع هذه الأمور تكمّل بعضها بعضاً.

هذا الكتاب يتمحور حول هذا التحليل بالضبط، مدعوماً بآراء كلير أوكوفر، بالإضافة إلى العروض التقديميَّة لصيغتي حول الإرهاب الانتحاري، جَعَلَ اهتمامي متركّزاً على الدين، كما أنّ ردودَ المُراجِع والجمهور قد ساعدتْ على توسيع آرائي.

بحلول أوائل عام 2009، جَمَعتُ بحثي وقمتُ بتطوير عرض تقديميّ مُدّتُهُ ساعة كاملة لشرح أسباب إيماننا بالله/ الآلهة، وبفضل ريتشارد دوكينز ومؤسّسته الكريمة Richard Dawkins Foundation for Reason and Science، صُوّر العَرضُ التقديميّ ونُشِر بشكلٍ رائع على اليوتيوب، حيث اجتذب مئات الآلاف من المشاهدات خلال فترة زمنيَّة قياسيَّة، وقد نبّهني ذلك المستوى من المتابعة والاهتمام بوجود اهتمام واسع النطاق حول وجود دليل موجَز وواضح لعلوم الدين الجديدة، ومن هنا نشأت

نواة هـذا الكتاب.

أضافَـت كلـير أوكوفـر سـحرها على عَمـلي النثـريّ، وقدّمَـت مُرفَقَـات وأمثلـة لا تُقَدّر بثمَـن للعديـد مـن الأفـكار، كـما أنّ لديهـا فكـرة مُلهِمَـة عـن إدراج صـورة ناسـا المذهلـة لسـديم اللولـب، أو ما يسـمّى «عين الله»، التـي التقطت جزئياً باسـتخدام مقـراب هابل، يجـب أن يتمتّـعَ كلّ كاتـب أو مؤلّـف بصحبـة زميـل رائع.

هـدفي هـو جَعـل القـارئ يقـرأ بسرعـة، وخـلال الوقـت القصـير الـذي يسـتغرقه قـراءة هـذا الكُتيّـب الخفيـف، سـيكون قـادراً عـلى فهـم كيفيَّـة عمـل العقـل والدمـاغ لتوليـد المعتقـدات الدينيَّـة والمحافظـة عليهـا (وإذا كانـت لديك أيّة أسـئلة، فأنـا أرَحّب بمراسـلاتك).

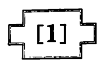
أنْـهِ الكتـاب، وارجَـعْ إليـه عـدّة مـرّات، أعْطِـهِ لصديق، تَـبَرّع بـه لمكتبة أو مَدرسـة. بتنـا نعـرف الآن لمـاذا وكيـف تصيـغ عقولنـا المعتقـدات الدينيَّـة بالله/ الآلهـة وتنشرها، وتسـتمرّ الأبحـاث الجديـدة في إضافـة المزيد إلى مـا نعرفه أصـلاً؛ هذه المعرفـة يمكن أن تُحَرّرنا.

أيُّ شيء يمكننـا فعلـه -مهما كان ضئيلاً- لتخفيف قبضة الدين الشـديدة عن الإنسـانيَّة، يوجّـه ضَربـةً موجِعَـةً لصالـح الحضـارة، ويُعَزّز فُـرَصَ قيـام مجتمع مَـدَنيّ عالمـيّ حقيقيّ، وربّـما بقـاء جنسـنا عـلى المَـدى الطويـل، إذا كُنتُـم متديّنـين، واختَرتُـم هـذا الكتـاب، فهذا ربّما لسـببٍ معـيّن، اقرأوه.

المقدمة (ملاحظات مُكَمّلَة)

للاطلاع على أوراقي البحثية وعَرضي التقديمي حول الإرهاب الانتحاري، انظر موقع الويب الخاص بي www.jandersonthompson.com

تأتي فكرة أنّ أيَّ شيء نفعله لتخفيف قبضة الدين عن الإنسانيَّة بمنزلة ضربة موجِعَة لصالح الحضارة تأتي من ملاحظات الفيزيائيّ ستيفن واينبيرغ في ندوة ما بعد الإيمان التي عُقِدَت في سان دييغو عام 2006؛ هذه الندوة مصدر غَنيّ للمحادثات، وأنا أوصي بوجه خاص بالعَرض التقديميّ عن التصميم غير الذكي للكون بواسطة عالِم الفيزياء الفلكيَّة ومدير قبّة هايدن السماويَّة في المتحف الأمريكيّ للتاريخ الطبيعيّ، نيل ديغراس تايسون.



﴿في البدء كان العالَم﴾

ميلُنا إلى الإيمان

((ليس أقوى الأنواع وأكثرها ذكاءً هي التي تنجو وتستمرّ... بل تلك الأنواع التي تمتلكُ القدرة على التكيّف مع المتغيّرات)). [تشارلز داروين]

هناك مَنْ يقول أنّ التطوّرَ يتعارضُ مع الدين، أو أنّ العجائبَ الطبيعيَّةَ للتطوّر قد وضعَها وصاغها كائن غيبيّ مُطلَق العلم والمعرفة من نوعٍ ما، لكن إذا كان هناك فعلاً إله مُطلق القدرة والعلم والمعرفة، فإنّه قد خلق إنساناً متطوّراً ووضع فيه مقدرةً بالغةَ القوّة والفعالية: ميله أو نزوعه للإيمان بالله.

على مَرّ التاريخ المكتوب، منذ عهد المصريين القدماء وحتى الآزتك والرومان وما بعدهم -موحّدون، ومسيحيون، ويهود، ومسلمون، وهندوس، وبوذيون، ووثنيون، وإبليسيون، وعِلمَويون- جميع الحضارات والثقافات المعروفة قد تَمَحوَرَت حول مفهوم مركزيّ يتمثّل في إلهٍ واحدٍ على الأقلّ/ أو شخصيَّة أسطوريَّة من نوعٍ ما، مع عالَمٍ متلائم ومتوافق معها. لماذا الدين سِمَة عالميَّة يمتلكها جميع البشر وكافة الحضارات التي أقمناها؟

لقد بدأنا نَفهَم الأمر.

حَدَثَتْ خلال العقدين الماضيين ثورةٌ في علم النفس وعلم الأعصاب المعرفيّ، وقد انبثقتْ من قلبِ هذه الثورة تفسيرات ثوريَّة للأسباب التي تدفع العقول البشريَّة لتوليد المعتقدات الدينيَّة، لماذا نولّد أنماطاً معيَّنةً من المعتقدات، ولماذا عقولنا مصمّمة وقابلة لاعتناقها والتبشير بها؟

أصبحَ الآن لدينا نظريَّات متينة ومتماسكة مع أدلّة وبراهين تجريبيَّة، من ضمنها أدلّة من دراسات مصوّرة -تحتوي صوراً للدماغ نفسه ونشاطه- تدعم هذه التفسيرات، جميع القطع الآن في مكانها المناسب، ويمكننا الآن اللجوء إلى العلم لنحصل على فهمٍ شاملٍ ومُوَسّع للأسباب التي تدفع العقل البشريّ لإنتاج واعتناق الأفكار الدينيَّة، ولماذا سيغيّر البشر سلوكهم في سبيلها، ويموتون من أجلها، ويقتلون بعضهم البعض باسمها.

إنَّ نظريَّةَ داروين في الانتخاب الطبيعيّ تبقى واحدةً من أهم الأفكار التي طرأتْ على العقل البشريّ، ويثبتُ الدليل بأنّها حقيقيَّة، فالانتقاء الطبيعيّ هو التفسير العلميّ الوحيد والمُقنِع لتصميم الحياة وتنوّعها -النبات، والحيوان، وأشكال أخرى من الحياة- على الأرض، كما أنّه التفسير العلميُّ الوحيد لتصميم العقل البشريّ وطريقة عمله، الذي هو مَهدُ جميع الآلهة.

انظُر حولَكَ، نحن جميعاً نتتمي للنوع نفسه: الهوموسابينس Homo Sapiens، ومع ذلك فقد أتينا جميعنا بأشكال وأحجام وقدرات مختلفة ومتباينة، لكن بالنسبة إلى جميع المتغيّرات، فأغلب السمات والصفات موروثة، نحن نميل لنشبه أبوينا وأقرباءنا المقرّبين، نتشارك نقاط ضعفنا وقوّتنا مع هؤلاء الأسلاف الذين سبقونا، نحن جميعاً نتيجة نجاحهم وقدرتهم على البقاء.

إنَّ مصطلحَ «بقاء الأصلح أو الأنسب» كثيراً ما يُساء فهمه، تعني عبارة البقاء للأنسب أو الأصلح -بالمعنى الداروينيّ- القدرة على التلاؤم أو التكيّف، والبقاء والاستمرار، والتكاثر والازدهار، هذا الصراع من أجل البقاء يقضي على جميع الكائنات التي تفتقر لتلك القدرة.

لم يكنْ داروين يعرف بالضبط كيفيَّة انتقال السمات والخصائص من جيلٍ إلى آخر، ولم

يحدثْ ذلك حتى عام 1953 حين اكتشف كلٌّ من جيمس واتسون وفرانسيس كريك لولب الحمض النوويّ المسؤول عن نقل الشيفرة الجينيَّة DNA، وسرعان ما تمّ إدراك قدرتها الفائقة على نسخ نفسها والكشف عن آليّات النسخ الممكنة وتحديد وسائل وآليّات التوريث فيها.

ولكن مع الجمع ما بين نظريَّة الانتقاء الطبيعيّ والوراثة الجينيَّة، بين تشارلز داروين وواتسون وكريك، فإنّنا نصنعُ بذلك تآلفاً داروينيّاً معاصراً، لكي ننجو ونستمرّ، فإنّنا نتطوَّر خلال زمن تطوّريّ، تماماً كما تطوّرت كائنات جزر غالاباغوس بالتوازي مع بيئتها القاسية والفريدة، ليس هناك أيّ مكان آخر على وجه الأرض تطوّرت فيه زواحف الإغوانا لتصطاد في المحيط، الحلّ الأمثل لمشكلة العثور على الغذاء في هذه الجزر الصغيرة والضيّقة، وحتى بين الجزيرة والأخرى، كلّ واحدةٍ منها ذات مناخ بيئيّ مستقل ومنعَزل تماماً، فالحيوانات على كلّ جزيرة من هذه الجُزُر قد واجهتْ بعض المشكلات المختلفة، وعثرتْ لنفسها على حلول مختلفة بعض الشيء عن بعضها، لقد تكيّفَت، لكنّ الأهمَّ من ذلك أنّها استطاعتْ تمرير السمات التكيفيَّة إلى سلالتها.

جميعُ الكائناتِ العضويَّة، ومنها الإنسان، عبارة عن مجموعة مُحَسّنة وفعّالة من السمات والخصائص التكيّفيّة -أدوات حَلّ المشكلات- مُصاغَة عن طريق الانتقاء الطبيعيّ على امتداد فترات زمنيَّة طويلة من الزمن التطوّريّ، كلُّ سِمَة تكيفيَّة تسمح بطريقة معيّنة ببقاء الجينات التي ساهمتْ في إرشاد عمليَّة بناء تلك السمات التكيفيَّة.

يمكننا ملاحظةُ عمليَّة الانتقاء الطبيعيّ الداروينيّ عبر كلّ المستويات، من المستوى الجزيئيّ إلى مستوى العقول.

انظروا إلى أنفسكم، أنتم بحاجة للأكسجين لكي تظلّوا أحياءً، وبوصفكم كائنات عضويَّة معقّدة ومتطوّرة، كنتُم بحاجة لتطوير طريقة فعّالة لاستخلاص الأكسجين من الهواء وتوزيعه عبر أجسادكم.

بنية قلبكم هي بمنزلة حَلّ للمشكلة البقائيَّة المتمثّلة بضَخّ الدم إلى جميع أعضاء جسدكم، بروتينات خُضاب الدم تحلّ مشكلة نقل الأكسجين إلى دماغنا وجميع الأعضاء الأخرى، فالأكسجين المحمول عن طريق خُضاب الدم الذي يضخّه القلب يأتي من الرئتين اللتين حَلّتا مشكلة استخلاص الأكسجين من الهواء، وهكذا، ونحن نسمّي هذه العمليَّة بمجملها باسم «التنفّس».

هذا التآلفُ العصريُّ والحديثُ ينطبقُ أيضاً على العقل البشريّ والدماغ البشريّ، فالدماغ عضو، وكما يشير عالِم النفس والباحث في جامعة هارفردستيفن بِنكر، العقل هو ما يقوم به الدماغ، والدماغ مثله كمثل أيّ نسيج حيّ عبارة عن مجموعة متطوّرة ومحسّنة من الآليَّات والأدوات التي تمّ صنعها عن طريق الانتقاء الطبيعيّ لحلّ مشكلات معيّنة تتعلّق بالبقاء وعلى امتداد فترات زمنيَّة تطوّرية طويلة جداً؛ هذه السمات التكيّفيَّة، من بينها السمات التكيفيَّة الاجتماعيَّة التي تساعدنا على البقاء والاستمرار ضمن جماعات صغيرة، تطوّرت داخل الدماغ لتعزّز بطريقة ما استمرار وبقاء الجينات التي أرشَدَتْ عمليَّة بنائها.

حين تنظر إلى أحد الوجوه، فإنَّ الصورةَ المرتسمة على شبكية عينيك هي صورة مقلوبة فعليّاً وثنائيَّة الأبعاد، لكنّ دماغك يحوّل تلك الصورة إلى صورة معتدلة ومستوية ثلاثيَّة الأبعاد عن طريق عدد هائل من السمات التكيفيَّة البصريَّة: مستكشفات ألوان، ومستكشفات حركة، ومستكشفات أشكال، ومستكشفات حدود، وجميع تلك السمات تعمل بآنٍ واحدٍ معاً، وبصمت، وبطريقة احترافيَّة وفعَّالة.

لقد طوَّرَ أسلافنا عشرات الآلاف من السمات التكيفيَّة الاجتماعيَّة المعقدّة، فحين ترى ذلك الوجه، فإنّك تصدر أحكاماً مجرّدة أيضاً عن جنس، وعمر، وجاذبيَّة، ووضع، وشخصيَّة، ومحتويات عقل ذلك الشخص غير المرئيّ، من بينها مقصده وغاياته، ونواياه، ورغباته، ومعتقداته؛ هذه السمات التكيفيَّة المتمثلة بصياغة الأحكام تقع خارج نطاق الوعي والإدراك، وقد تبقى قابعة ضمن مجال اللاوعي إلى الأبد، كما أنّ أحكامك ومعتقداتك التي تعتنقها قد تمّت صياغتها على مدى ملايين السنوات.

إنَّ ثنائيَّةَ «عقل/ دماغ» معقّدة للغاية، تصوّر مركبة أبوللو الفضائيَّة، التي هي عبارة عن منظومة مُحكَمَة ومحزّمة من الأدوات الهندسيَّة، وكلّ أداة مصمّمة لتحليل مجموعة محدّدة ومعيّنة من المعلومات وحَلّ مشاكل معيّنة، كلّ ذلك في حين أنّ روّادَ الفضاء لا يدركون سوى مجموعة محدّدة ومُنتَقاة منها، نحن نعمل في الوقت نفسه، تصوّر جميع الأشياء والأمور التي تُدرِكها، إنّها جميعها مجرّد جزء صغير جداً من نظام متكامل، القسم الظاهر من الجبل الجليديّ لما يَحدُثُ داخل عقلك.

من المهمّ جداً فهم ذلك واستيعابه لأنّ الدينَ -في الوقت الذي لا يمكن عَدُّهُ سِمَةً تطوريَّةً بحدّ ذاته- ينبُعُ من نفس السمات التكيفيَّة الاجتماعيَّة العقليَّة/ الدماغيَّة التي نستخدمها لإرشاد أنفسنا في خِضَمّ هذا البحر الشاسع من البشر المحيطين بنا، وقد تكوّنتْ هذه السماتُ التطوّريَّةُ لحَلّ مشكلة اجتماعيَّة وشخصيَّة محدّدة مع تطوّر الإنسانيَّة، وقد اجتمعتْ مع بعضها عن طريق الصدفة تقريباً ولكن بقوّة، لتكوّنَ أساسَ كلّ فكرة دينيَّة، ومعتقد دينيّ، أو طقس دينيّ؛ إنَّ المعتقداتِ الدينيَّة هي مفاهيم إنسانيَّة بقائيَّة اجتماعيَّة مع بعض الاختلافات الطفيفة فيما بينها.

أمّا كَون الدين نتيجة ثانويَّة للسمات التكيفيَّة التي حَدَثَتْ لأسباب أخرى مختلفة فلا ينفي ذلك قوّته وتأثيره الهائلين، وكما سنرى لاحقاً في الفصل التاسع ((الكتابة والقراءة ليسا سِمات تكيفيَّة بحدّ ذاتهما، بل هما نتيجة ثانويَّة للسمات التكيفيَّة التي صُمِّمَت لأغراض وأسباب أخرى مختلفة))، فجميع الديانات -بوصفها مجموعةً من المعتقداتِ المتعلّقة بأصل الكون وطبيعته وغايته- بدأت كإيمان بوجود شخصيَّة محوريَّة أو عدّة شخصيَّات، معظم الديانات تتضمّن إلهاً أو عدّة آلهة قادرة على التفاعل مع البشر، كما أنّ لديها القدرة، والرغبة في التدخّل بحياتنا، وسماع أمانينا الصامتة، ومنحنا إيّاها، كما أنّها قادرة على القيام بأيّ شيء، كلّ شيء، وبغَرَض النقاش هنا، فإنّنا سنتكلّم عن إلهٍ واحد فقط، ونشير إليه على أنّه ذَكَر، مع أنّ هناك العديد من الديانات التي تصوّرت وجود عدّة إلهات إناث ونَسَبَت إليها قوى وقدرات مختلفة، ومع ذلك فهي متشابهة بصورة فريدة، وإله الديانات الإبراهيمية الثلاث

هو نفسه طبعاً؛ لذلك سنستخدمه كمثال.

هذا الإلهُ أبَويّ، إلهٌ-أب، يحبّنا بصورة غير مشروطة، عادةً هو لا يسمع صلواتنا إلا إذا عَبَدناه بقوّة وتطرّف، وقدّمنا له هدايا وأضاحي، واعترفنا بأنّنا خُطاةٌ وناقصون، ونشكره ونَحمده بشكلٍ مبالغٍ فيه (سواءٌ إذا استجاب لدُعائنا أم لَمْ يَستَجِب فعلينا أن نشكره ونسبّح بحمده)، وأن نؤمن بأنّنا جميعاً وُلِدنا مُذنبين وسيئين؛ هذا الإله يُقيم خياراته وقراراته ليس فقط على أساس صلاتنا، بل على أساس صلوات جميع البشر الآخرين، أو على الأقلّ كلّ كائن بشريّ يتشارك تفاصيل حياتنا ومعتقداتنا، وحتى حين يرفض أمانينا وصلواتنا، فإنّنا نستمرّ في الإيمان بأنّ كلَّ ما يَحدث هو لصالحنا حتى وإن لم يكُنْ كذلك، وأنّ هذا الإله الخَفيّ وغير المرئيّ لديه هَدَف وخطّة إلهيّة لكلّ شيء، وكلّ ذلك يجري داخل عقولنا حتى حين لا نفكّر بذلك.

تصوّر الحالة التالية أنّكَ حين كنتَ مراهقاً، وقد دَبّرَتْ لكَ أمّكَ موعداً مع فتاةٍ لَمْ تقابلها من قبل وأكّدَت لك أنّ هذه الفتاة جميلةٌ جداً وثريّة ولطيفة ومُحِبّة ومُستَعِدّة لفعل أيّ شيء من أجل أن تسرّكَ وتُسعِدكَ حتى ولو لم يسبقْ لكما أن التقيتما، ولَمْ تَكُن تريدُ منكَ شيئاً سوى مَحبّتَكَ لها، هل كُنتَ لتُصَدّق والدتَكَ؟ حسناً... لن يَحدُثَ ذلك إلا إذا كُنتَ مراهقاً فعلاً، ولن تصدّقها لفترة طويلة.

إذاً لماذا نَرغَبُ بالإيمان بإلهٍ خفيّ وغير مَرئيّ يفعل ذلك، بل وأكثر؟

مقارَنَةً بما يَحدُثُ فعلاً داخل عقولنا، فإنّ مفهومَ الإله الخفي والمُتَعالي قد يبدو سَهلاً، ولمجرّد الإيمان بالله، فإنّ أدمغتنا تتجاوز ما يُقارب عشرين سِمَة تكيفيَّة أو أكثر موصولَة بأدمغتنا تطوّرتْ على مدى قرون طويلة من الانتقاء الطبيعيّ لمساعدتنا على التعايش والتواصل مع شركائنا من الهوموسابينس [الإنسان العاقل] للبقاء والاستمرار والسيطرة على الكوكب، وخلال الصفحات التالية، سنريكم بالضبط كيف ولماذا تقبل العقول البشريَّة وتعتنق الأفكار المستحيلة واللامعقولة، وكيف تصنع طوائف ومذاهب منها.

سنُريكم كيف أصبَحَ البشر يؤمنون بالله -من بين الكثير من الأمور الأخرى أيضاً- ويحبّون إلهاً، ويفضّلونه على إلهٍ آخر، كيف يتصوّرون إلهاً مثلنا، يُصَلّون له ويفترضون أنّه يسمع صلواتهم ويستجيب لدعائهم، ويخترعون طقوساً وشعائر ليعبدوا هذا الإله، بل إنّهم مستعدّون حتى للموت وقتل الآخرين في سبيله، وسنريكم لماذا هذه السمات التكيفيَّة الاجتماعيَّة الموصولة والمتجذّرة في عقولنا تجعل التخلّص من هذه المعتقدات صعباً، حتى وإن كُنّا نريد ذلك، لكن دعونا أولاً نبدأ من عند نقطة محوريَّة في مسيرة التطوّر.

الفصلُ الأوَّل (ملاحظات مُكَمّلَة)

((إنَّ نظريَّةَ داروين في التطوّر عن طريق الانتقاء الطبيعيّ هي التفسيرُ العلميّ الوحيدُ الذي تَمّ اقتراحه لحقيقة وجودنا الرائعة، ووجود مختلف أشكال الحياة أينما ظَهَرَت في الكون؛ إنَّهُ التفسيرُ العلميُّ الوحيدُ المعروف الذي يفسّر التنوّع الغنيّ للحيوانات والنباتات والفطريات والبكتيريا... إنَّ الانتقاءَ الطبيعيَّ هو التفسيرُ العلميُّ الوحيدُ للوهمِ الجميلِ والمُقنِع «للتصميم» الذي يسود كلَّ جسم حَيّ وكلّ عضو، قد لا تكون معرفة التطّور مفيدة عموماً خلال حياتنا اليوميَّة، ويمكنك أن تعيشَ مُجمَلَ حياتك وتموت دون أن تسمعَ باسم داروين على الإطلاق، ولكن إذا أرَدت، قبل أن تموت، أن تَفهَم الغاية من حياتك في المقام الأوَّل، فإنَّ الداروينيَّةَ هي الموضوع الوحيد الذي عليك دراسته)). [ريتشارد دوكينز] Richard Dawkins, foreword to John Maynard Smith's *The Theory of Evolution*, Canto ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 1993).

التصريحُ الموجَزُ عن التطوّر بصفته مجموعةً متكاملةً من أجهزة أو حَلّ المشكلات، التي تأتي مستوحاة من دونالد سيمونز «التكيفيَّة وسيكولوجيَّة التزاوج البشريّ» Donald Simmons, *Adaptationism and Human Mating*

Psychology, in The Handbook of Evolutionary Psychology, ed. David M. Buss (Hoboken, NJ: John Wiley & Sons, 2005)، كما أنّ مقولةَ ((العقل هو ما يقوم به الدماغ))، والتشابه الكبير مع مركبة أبوللو الفضائيَّة مستوحى من كتاب ستيفن بِنكَر Steven Pinker's, *How the Mind Works*, (New York: Norton, 1997).

الإيمانُ بشخصيَّةٍ دينيَّةٍ أو قدسيَّةٍ مركزيَّة أو أكثر من شخصيَّة مقدَّسة: على الرغم من أنّ الكاثوليكيَّة والأديان اليونانيَّة والأرثوذكسيَّة المشرقيَّة المماثلة يُنظَر إليها في المقام الأوَّل على أنّها ديانات توحيديَّة، إلا أنّها تعملُ في الواقع كديانات تعدّديَّة؛ إذ يُنظَرُ إلى القدّيسين كشخصيَّات خارقة وفاعلة وهذا دليل على أنَّ الدينَ من صُنع الإنسان، لو كان الكاثوليك صادقين مع أنفسهم، فسوف يعتبرون جميع القدّيسين كآلهة ثانويَّة، فالمَرء يصلّي للقدّيس أنطوني إذا فَقَدَ شيئاً، وإلى القدّيس جود إذا أراد لشيء مستحيل أن يتحقّق، وأصبحت القدّيسة كلير شفيعَة التلفاز في الخمسينيات بسبب «رؤياها» الخاصَّة، وبصفتها مؤسِّسة (مع القدّيس فرنسيس الأسيزي) ورئيس دير «كلاريس المسكينة»، لَمْ تَعُدْ في سِنٍّ يؤهّلها لحضور قدّاس عيد الميلاد، لذلك ذكرت أنّها شاهَدَته حين كانت بمفردها، على جدار صومَعَتها الرهبانيَّة.

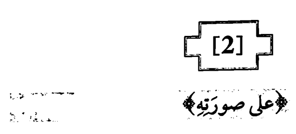
مع أنّ القدّيسين يعملون كآلهة ثانويَّة -هناك قوّة خارقة للطبيعة تُنسَبُ إليهم- فقد يكون من الأسهل اعتبارهم جماعات ضغط سماويَّة، ويصلّي الكاثوليك إلى القدّيسين، لا ليُلبّوا لهم صلواتهم ودعواتهم، فالله وحده مَن يفعل ذلك، أو هكذا قيل لهم، إنَّ الكاثوليك يحاولون الوصول إلى الله، ويطلبون من القدّيسين «الشفاعة» مع الله من أجلهم، هذا التمييز الذي وُضّحَ بجلاء في العقيدة الكاثوليكيَّة يلتفّ بذكاء حول الاتهامات المُوجّهة لها بالتعدديَّة، يمكن أن يكونَ لديك قِدّيسوك الذين تحبّهم وتفضّلهم، لكن ليس هناك سوى إلهٌ واحد (باستثناء الثالوث).

تبدأ عمليَّةُ تعيين شخصيَّة ما كقدّيس، حين يكون هناك شخصٌ صالحٌ يمثّل قدوة ولديه

أعمال إيجابيَّة، ثمّ تبدأ عمليَّة تبجليه وتقديسه من عند الأشخاص الذين يعرفونه عن قُرب، ثمّ يقدّم الناس بعد ذلك دلائل على قداسته، وعادةً ما يكون أوّل شخصٍ يقوم بذلك كاهن الأبرشيَّة، ويأخذ الدليل شكلَ معجزات منسوبة إلى القدّيس المستقبليّ، وهذا الأمر- إذا فكّرتَ فيه مَلياً- ينفي المفهومَ القائل إنَّ القدّيس المُرتَقَب يطلب فقط من الله أن يصنع المعجزات.

ينقلُ الكاهنُ المعلوماتِ والوثائق إلى الأسقف، الذي يرسلها بدوره حسب التسلسل الهرميّ إلى الكاردينال الذي ينقلها بدوره إلى البابا، ويتطلّب الحصول على شارة «قدّيس» عادةً أن تُنسَبَ إلى ذلك الشخص ثلاث معجزات طبّيّة على الأقلّ، أمّا إذا ماتَ شهيداً فيُمكن تخفيض هذا الشرط تلقائياً إلى اثنتين (حاول التفكير في ذلك ضمن سياق الإرهابيين الانتحاريين من ديانة أخرى)؛ إنَّ عمليَّةَ إضفاء القَداسة هي مثال كلاسيكيّ على ابتكار الإنسان للدين والآلهة. في السنوات الأخيرة، صَدَرَتْ اتهاماتٌ عديدة بأنّ بعض الباباوات «استعجلوا» في قراراتهم بتعيين قدّيسين على أكفّاء ولا يستوفون الشروط اللازمة في سبيل المنفعة السياسيّة *Sunday Times* [London], February 18, 2008، فإنّ بعضَ القدّيسين، بِمَن فيهم القدّيس كريستوفر الشهير، راعي المسافرين والرّحّالَة والذي تظهر صورته باستمرار على العديد من الميداليّات المُعَلّقة على مرايا الرؤية الخلفيَّة لسيارات الأجرة، قد «شَطَبَهُ» الفاتيكان من قائمة قدّيسيه، وهذه المؤسَّسة على ما يبدو لديها القدرة على إدراج الآلهة الثانويَّة وشطبها.

كلُّ ذلك يجعلُ من العقيدةِ الكاثوليكيَّة أساساً شبيهة بالهندوسيَّة، التي تُعَرّف بأنّها ديانة هينوثيَّة -henotheism أي إنَّها تقوم على الإيمان بإلهٍ واحد مع وجود عدّة آلهة ثانويَّة أخرى.



[2]

﴿على صورَتِهِ﴾

التطوّر للمبتدئين

((إنَّ التخلّصَ من الأخطاء هو خدمة ممتازة حتماً، وفي بعض الأحيان أفضل من تأسيس حقيقة جديدة)) [تشارلز داروين].

نحنُ جميعاً قِرَدَة متطوّرون، ولسنا ملائكة هابطة،ولدينا الدليل القاطع الذي يثبت ذلك، قد يكون كبرياؤنا وغرورنا سبباً في عَدَم تقبّلنا لهذه الحقيقة، ولكن هؤلاء الذين يؤمنون بفرضيَّةِ الخَلقِ الإلهيّ سيجدون المسألةَ برمّتها مهينة وقاسية، فمجرّد فكرة أنّ البشر قد تطوّروا من حيوانات «أقلّ» دفعَتْ الكثيرين لرفض فكرة التطوّر، منذ اللحظة التي كشف فيها تشارلز داروين الغطاء عن نظريته الجديدة، لكنَّ الدليلَ دامِغٌ ولا يدعُ أيّ مجالٍ للشكّ بأنّنا تطوّرنا بالتوازي مع جميع الأشياء والكائنات الأخرى من مستنقع بدائيّ، حيث بدأت الحياة على الأرض فعليّاً.

على طول الجانب الشرقيّ للقارّة الإفريقيَّة، يمتدُّ الأخدودُ الإفريقيُّ العظيم من إثيوبيا إلى موزامبيق، فكّر في هذا الأخدود بصفته القَناة التي وُلِدَ فيها جنسنا البشريّ؛ جَنّة عَدَن الحقيقيَّة، هنا بالضبط بدأ جنسنا البشريّ رحلته التطوّريَّة الفريدة.

نحن لَمْ نَنحَدِرْ من قرود، فمِن وجهة نظر علميَّة بَحتة، نحن من الرئيسيات؛ إذ إنّنا نتشارك نسبة 98,6 بالمئة من مادّتنا الوراثيَّة مع الشمبانزي، كما أنّنا نتشارك سَلَفاً مشتركاً عاش منذ حوالي 5 إلى 7 ميلون عام، ومن ذلك السلف المشترك انقسم فرع البشر الحاليين بالإضافة إلى غيره من الأنواع الأخرى، على غرار فروع أغصان الشجر، وفي النهاية جميعها قد ماتت واندثرت باستثناء غصن واحد، ذلك الغصن الذي جئنا منه أنا وأنت، نحن الآن المثال الوحيد المتبقّي عن القرد الإفريقيّ، الآدَمي Hominid، أمّا منذ ما يقارب 50,000 عام فربَّما كان هناك أربعة أو خمسة أنواع من الهومينيد القريبة لكنَّها مختلفة تتشارك الكوكب معنا، لكنّ الهومينيد هم الوحيدون الذين نَجَوا وحافظوا على بقائهم واستمرارهم.

لقد قابلنا للتوّ العديد من أسلافنا؛ إذ إنَّنا بتنا نمتلك بقايا أحفوريَّة وهياكل للأرديبيتيكوس Ardipithicus، وعلى الأرجح هو أقرب الأنواع لسَلَفنا البعيد التي نشترك فيه مع الشمبانزي، إذ يبدو أنّ هذا النوعَ يقوم على العلاقة الثنائيَّة بين الذكر والأنثى، كما أنّه كان أقلَّ عدائيَّةً وأكثر جنوحاً للسلام.

الأوسترالوبيتيكوس Australopithicus، وتعني قرد إفريقيا الجنوبيّ، الذي نعرفه من خلال أشهر هيكل عظميّ لنوعه، «لوسي» التي عُثِرَ عليها في إثيوبيا منذ حوالي أربعين عاماً، بقايا للبارانثروبوس Paranthropus (ويعني «قريب الإنسان») عُثِرَ عليها جنوبي إفريقيا بين عامي 1938 و1948 تُظهِر أنّه كان يمتلك دماغاً يبلغ حجمه حوالي 40 بالمئة من حجم دماغنا الحاليّ، وعلى الأرجح أنّ هذا النوعَ قد انقرض لأنّه كان عاجزاً عن التكيّف مع المتغيّرات في البيئة المحيطة والنقص في الغذاء.

وفي عام 2008، اكتشف صبي عمره 9 سنوات، وهو ابن أحد عُلماء الإناسة، جمجمة لصبي يبلغ أيضاً 9 سنوات في إفريقيا، هذه الجمجمة من فصيلة الهومينيد أيضاً -التي تمّت تسميتها Australopithicus Sediba -قد تمنحنا صِلات أكبر بيننا والقِردَة الإفريقيَّة الجنوبيَّة.

هذه الأنواع، بالإضافة إلى أسلافنا الهومينيد الأوائل، تواجدوا بشكلٍ مُشتَرَك في إفريقيا

لحوالي مليوني عام، حيث إنّهم نَجَوا وحافظوا على بقائهم واستمرارهم بطريقة محيّرة لفترة أطول ممّا قضيناه نحن حتى الآن.

مجموعتنا المُسَمّاة «الهوموسابينس/ الإنسان العاقِل»، لا تَظهَر في السِجِل الأحفوريّ إلا منذ حوالي مليوني عام وتتضمّن «الإنسان الماهر Homo-habilis» و»الإنسان المنتصب Homo-Erictus» و»إنسان هيدلبرغ Homo-Heidelbergensis«»، لقد خرج الإنسانُ العاقلُ من إفريقيا، من دون لغة ربّما، منذ حوالي أكثر من مليون عام، وهاجر إلى ما بعد جبال القوقاز، والصين، وإندونيسيا.

يبدو أنّ بعضَ أفرادِ إنسان هيدلبرغ أنجَبوا إنسان نيادرتال Neanderthal بعد أن هاجروا إلى أوروبا، حتى أنّ بيانات تحليل سلاسل الحمض النوويّ الحاليّة تشير إلى وجود نوع هجين بين أسلاف جنسنا الهوموسابينس وإنسان النياندرتال، هؤلاء الهوموهيدلبرغ الذين ظلّوا في إفريقيا أنجَبوا في النهاية الهوموسابينس الحديث.

إنَّ أبكَر البقايا والعظام المكتشفة للهوموسابينس تعود إلى حوالي 200,000 سنة؛ إذ هناك دليلٌ على وجود مقدرات رمزيّة تجريديّة، كالخضاب الذي يُستَخدَم في التلوين، بالإضافة إلى وجود دليل على حدوث عمليّات تجاريّة وتبادليّة بين الجماعات، والتي كانت تتطلّب وسائل وأساليب معقّدة من التواصل، يبدو أنَّ أقدَمَ الأعضاء المعروفين في نوعنا على الأرجح أنّهم يملكون أهمّ سِمَة نوعيّة-معرفيّة، واجتماعيّة-سلوكيّة: وهي المَلَكَة اللغويّة.

أنتَ وأنا، الهوموسابينس العصريون، الذين يمتلكون مقدرةً لغويّة، كنّا قد غادرنا إفريقيا منذ حوالي 60,000 عام، وهذه الفترة بمنزلة طَرفَة عين ضمن مسار الزمن التطوّريّ.

لنَضَعْ الآن جانباً فروقاتنا الأخلاقيّة والعِرقيّة والقوميّة والدينيّة، نجد أنّنا جميعناً إفريقيون تحت جلدنا الخارجيّ، أبناء وبنات مجموعة صغيرة من الصيادين الجامعين

الذيـن نشـأوا في إفريقيـا، وتفوّقـوا عـلى غيرهـم مـن الجماعـات الأخـرى، وغَـزوا العالَمَ.

والأمـر الإكثـر إدهاشـاً هـو أنّـه قـد حَـدَثَ تغـيّرٌ حـادٌّ في المناخ قبـل حـوالي 70,000 و100,000 عـام، ويبـدو أنّ هـذا الحَـدَثَ الكارثـيَّ قـد قلّـلَ من أعـداد نوعنـا إلى بضعة أفـراد ربّـما لا يتجـاوز عددهـم 600 فرد، قابلـون للتكاثر، وهـذا بالضبط ما يخبرنـا به علم الوراثـة الحديـث، وهـذا يعنـي أنّ كلَّ فـردٍ مـن السـبعة مليارات شـخص الذين يسـكنون الأرض الآن هـو سـليل تلـك الجماعـة الصغـيرة مـن الصيّاديـن الجامعين الذين عاشـوا في إفريقيـا وتمكّنـوا مـن النجاة من هـذا التغيّر المأسـاويّ في الطقـس والاسـتمرار والازدهار.

لماذا نحن، وكيف ولماذا نَجَونا؟

إنَّ مقارنـةً بسـيطةً بـين جماجـم قـرد إفريقيـا الجنـوبيّ/ أوسـترالوبيتيكوس، والإنسـان المنتصب/ الهومو-إريكتـوس، والإنسـان الحديـث تُظهِـر بـها لا يَـدَع مجالاً للشـكّ حدوث عمليَّـة تغيـير تدريجيَّـة في منطقـة الجبهة فـوق العينـين؛ إذ تفقـدُ الجبهـة انحدارها المُسَـطّح المائـل لتصبـح مُفَلطَحَـة، دمـاغ يبلـغ حجمـه حـوالي 400 إلى 500 سـم مكعّـب عند قرد إفريقيـا الجنـوبيّ يتضاعـف حجمه عنـد الإنسـان المنتصب ليُصبـح أكبر بثلاث مـرّات عند الإنسـان الحديث/ الهومو-سـابينس، وهـذا التغـيّر واضح بوجـه خاص في مناطـق الفَصّ الجبهـيّ، وهـي المناطـق في دماغنـا التـي تحتـوي الآليّات المعقّـدة، والسـمات التكيفيَّـة التي تسـاعدنا على إرشـاد أنفسـنا ضمـن العـالم الاجتماعيّ.

إذاً مـا الـذي أدّى لتطـوّر هذه الأدمغـة الكبيرة كأدمغتنـا؟... نحن، أو بشـكل أكثر دقّةً، آخـرون مـن نفـس نوعنـا لأنّنـا كنّـا بحاجـة إلى أن نعمـلَ معاً لكـي ننجـو ونبقـى، فالبقاءُ الجسـديُّ الفـرديُّ يتطلّـب بقـاءً اجتماعيّـاً، لذلـك قمنـا بتطويـر «روح الفريـق» أو «روح الجماعة».

إذا كانـتْ لديـك غرفـةٌ مليئـةٌ بالأشـخاص الغربـاء وقُمـتَ بتقسـيم هـؤلاء بطريقـة عشـوائيَّة إلى فريقـين ليلعبـوا لعبـة، فسـتراهُم قـد بـدأوا بالاندمـاج والتفاعـل كُلٌّ مـع

المجموعـة التـي انتَسَـبَ إليهـا، سيُعتبرون هـؤلاء الذيـن هُـم مـن المجموعـة نفسـها على أنهـم «الأنـا»، وهـؤلاء الذين ينتمـون إلى المجموعة الأخـرى «الغَـير» أو «الآخر»، وعلى الأرجح سـتكون هناك منافسـةٌ شـديدةٌ بين المجموعتـين، حتى وإن كان أفـراد كلّ مجموعة غُرَبـاء تماماً عـن بعضهـم البعض، لكن مـا أن تبـدأ اللعبة حتى يتحـوّل هـؤلاء الغرباء إلى رفـاق في الفريق.

هل سبق أن أدركتَ ذلك وصُدِمتَ جَرّاء غرابة هذا الأمر؟

ربّـما لا، لأنّـه أمرٌ طبيعـيٌّ تمامـاً، عـلى الأرجح أنّـك سـتفعل الأمر نفسـه، هـذا النزول والميـل نحـو «روح الفريق» أو «روح الجماعة» سِـمَةٌ متجـذّرةٌ وموصولـة في أدمغتنا وهي التـي سـاعدت أسـلافنا على البقـاء والاسـتمرار في العـالم الذي تطـوّروا فيه.

إنّ بوتَقَـةَ العلاقـاتِ والروابط الصغيرة والمُحكَمَة من القَرابة والنَسَـب قد سـاعدتْ على صياغـة وتشـكيل البـشر كما نحـن الآن، وذلك ليـس تاريخاً قديـماً، فحتّى فـترة قريبة أي ما قَبـل خمسـمئة عـام مَضَـت، كان مـا يـزال ثُلُثَا سـكّان العـالَم يعيشـون ضمن قبائـل صغيرة مـن الصياديـن الجامعين، ذلـك النوع مـن البيئات الاجتماعيَّـة التي صاغتنا والشـكّل الذي تكيّفنـا إليـه، لكنّنـا مازلنـا قبليين بطرق شـتّى داخـل أنفسـنا ونفسـيّاتنا، لكنّنا كنّـا ما نزال صغـاراً جداً.

قد تتساءلون: إذاً، ما علاقة كلّ ذلك بالدين؟ الجواب: كلُّ شيء له علاقة.

فالديـن يسـتغلّ ويوظّـف كافّـة عمليّـات التفكير الاجتماعـيّ اليومـيّ، وآليّـات تطوّريَّة تكيفيَّـة قـد تطـوّرتْ لمسـاعدتنا على مناقشـة ومفاوضـة علاقاتنا مـع الآخرين، لاكتشـاف الوكالـة والعَمالَـة والنيّـة، ولتوليـد شـعور بالأمان؛ هـذه الآليّات قـد صُنِعَـتْ في العالَمِ غير البعيـد جـداً في وطننـا الأم إفريقيـا، وهي السـبب الذي سـاعَدَنا عـلى النجـاة والبقاء.

في حـين أنّ الاعتقـادَ الدينـيَّ ليـس سِـمَةً تكيفيَّـةً بحـدّ ذاتـه، إلا أنّـه نتـاجٌ ثانـويٌّ لتلك الآليّـات السـيكولوجيَّة التـي سَـمَحَتْ لنـا بتصـوّر أنـاسٍ آخرين وعـوالِمِ أخـرى، جميعها

قـدرات ضروريَّـة وجوهريَّـة لبقـاء الإنسـان واسـتمراره، ولأنَّ الديـنَ لا يؤثّـر عـلى تلك السـمات التكيفيَّـة ولا يغيّرهـا إلا ضمـنَ نطـاقٍ مُحَـدّدٍ جداً، لكـن يمكـن أن يكـونَ قويّـاً وفعّـالاً جداً.

دعونـا ننظـر إلى نتائـج النتـاج الثانـويّ التكيّفـيّ بطريقـةٍ أخـرى: هـل تُحـبُّ الأغذيـة والمأكـولات السريعـة، ولنَقُـل طَبَـق برغر كبـير ومُغَطّـى بالجبنـة، وصحنٌ كبيرٌ مـن المقالي المَمَلّحَـة، وكأس كبـيرة مـن الكـولا المُثَلّجـة أو مخفـوق الحليـب؟

معظـمُ النـاس يحبّون أنواعـاً مختلفة من المأكـولات السريعة، وفي بعـض الأحيان يتوقون لتناولهـا، فـإذا كانـتْ المأكـولاتُ السريعـةُ لا تُغريـك، فربّـما تتـوقُ مـن حينٍ لآخـر لتناول ضلـعِ مشـويٍ وريّـان، أو قـد تتوق لتنـاول البوظـة، قـد تتجنّب تناولها بسـبب حِميـة معيّنة أو لأسـباب صحّيـة أخـرى، لكـن لابدّ أنّك قـد تتـوق لتناولها وتشـتهيها من حـينٍ لآخر، وبالرغـم مـن جميع أسـبابكَ التـي تمنعُكَ مـن ذلك.

لماذا يحدث ذلك، وما هو الضروري في هذا المثال؟

إذا فَهِمتُـم سـيكولوجيَّة التّـوق إلى المأكـولات السريعة واشـتهائها -ربّـما شريحة طازجة ومشـويّة مـن ضلـعٍ رَيّـان، أو لـوحٍ مـن الشـوكولا- فبإمكانكـم اسـتيعاب سـيكولوجيَّة الديـن بشـكلٍ كامل.

لقـد تطوّرنـا ضمـنَ بيئـةٍ خَطِـرَة ووسَـطٍ قـاسٍ، ولدينـا تـوقٌ شـديدٌ لتنـاول الأطعمـة التـي كانـت نـادرة وشـحيحة لكنّها ضروريَّـة وحيويَّـة لبقائنا الجسـديّ وصحّتنـا، لا أحد يتـوق إلى القرنبيـط، فمُعظَـم الخضروات والسـاقيات كانت متوفّـرة بكثـرة، أي إنّها كانت مصـدراً وفـيراً للغـذاء في العـالَم القديـم، لكنَّنـا جميعنـا نتـوق لتنـاول الدهـون والدسـم والحلويـات، الدهـن الأصـليّ كان مصـدره لحـم الطرائـد، وهـو مصـدر ثمـين ورئيـس للكميَّـات المُرَكّـزة مـن البروتينـات والسـعرات الحراريَّـة، والحلويـات الأصليَّـة كانـت الثـمار والفواكـه الناضجـة، وهي مصدر أسـاسيّ ومهـم للسـعرات الحراريَّـة، والمُكمّلات

الغذائيَّة، وفيتامين سي، لم يكُن هناك غَزارة ووِفرَة في الطعام، أمّا خطر المَجاعة فكان بشكّل تهديداً دائماً لأسلافنا.

التوق -بحَدّ ذاته- هو سِمَة تكيفيَّة، فهو الحَلُّ لمشكلة تأمين الغذاء الأساسيّ والحيويّ، والنادر، للحفاظ على الحياة واستمرارها، فحين اختبر أسلافنا شعورُ التّوق والاشتهاء، بحثوا عن هذه الأغذية وسعوا وراءها، وبفضل هذا التوق نجوا وحافظوا على بقائهم وتكاثروا بشكلٍ أفضل من أولئك الذين لَم يَرِثوا هذه السِمَة التكيفيَّة المهمّة، ولذلك لَم يبحثوا عن الأطعمة التي كانوا يحتاجونها.

وما أن وَجَدوا تلك الأغذية، حيثما تمكّنوا من ذلك، تناولوا منها فوق حاجتهم في ذلك الوقت، في العالَم الذي تطوّرنا فيه، لم يكونوا يتوقّعون أنّ هذا النوع من الغذاء سيتوفّر بغَزارة وكثرة في المستقبل، تلك الشهية التكيفيَّة لتناول هذا النوع من الطعام بشكلٍ زائدٍ عن الحاجة ساعَدَتْ في حَلّ مشكلة وفرة الغذاء غير المتوقّعة.

لكن في يومنا هذا، وفي أغلب بقاع العالَم المتطوّر، باتَ الغذاءُ وفيراً جداً وقد خَلَقَتْ حضارةُ الإنسان طرقاً جديدةً لإشباع هذا التوق وإسكات هذه الشهية. الآن أصبح لدينا أغذية سريعة، غنية ومُشبَعة بالدهون والدسَم الضار الذي يسدّ أوعيتنا الدمويَّة ويزيد وزننا، وهذا توقٌ قديم للحم الطريد المُهبَرّ والطّريّ الذي بَحَثَ عنه أسلافنا وسعوا وراءه، وبدلاً من تناول الفواكه الطازجة والناضجة أصبحنا نتناول الصودا والحلوى وألواح الشوكولاته.

ومع أنّنا على درايةٍ تامّة بالضّرَر والأذى الذي تسببّه لنا الشحوم والملح والسكّر، إلا أنّنا ما نزال نشتهيها ونتوق لتناولها، وما لَم نضبطْ أنفسنا ونهذّب شهيّتنا، فسنختارها ونفضّلها حَتماً على لحم الهَبر الصحّي والفواكه الناضجة، لماذا؟

لأنّها تتضمّنُ منبّهات فائقة وفعّالة، فأدمغتنا تتفاعل مع هذا الارتفاع الحديث والنسبيّ للسعرات الحراريَّة المُفرِطة والمَطلوبة كأنّها شيء مفيد ومرغوب، كأنّنا

مازلنا بحاجةٍ للتصرّف كما كان يتصرّف أسلافنا قبلنا؛ إنّ أدمغتنا تكافئنا حين نتناول أغذيتنا المفضّلة، تتفجّر مراكز السعادة واللذّة في أدمغتنا بمشاعر النشوة، ما نختبرهُ في الحقيقة ليس مجرّد إرضاء بسيط لرغبة، بل لذّة ونشوة بالغتين تحرّرهما مواد كيميائيّة موجودة في الدماغ، هذه المراكز في أدمغتنا، التي يصل بينها الموصِل العصبيّ «الدوبامين»، تسمّى «افعَلها مرّةً ثانية» أو «قُمْ بذلك مجدّداً»، لا يقتصر عمل هذه المراكز على منحنا موجة من النشوة، بل إنّها تحفّزنا على تكرار الفعل الذي مَنَحَنا كلّ هذا الرّضا.

إنَّ شعورَ السعادة والنشوة سِمَة تكيفيَّة أيضاً، وقد ساعدتنا هذه السِمَة أساساً على حَلّ مشكلة البحث عن الأغذية النادرة وتأمينها عن طريق تعزيز استهلاكها، والمكافأة عند إيجادها، وتوليد شعور بالتوق والاشتهاء الذي يضمَن استمراريَّة البقاء.

إذاً، إنّ توقنا غير المعقول لهذه المُستَحدثات والبِدَع الثقافيَّة الجديدة يَنبع من السمات التكيفيَّة التي ساعدتنا على تأمين وضمان بقائنا واستمرارنا؛ التوق الذي دَفَعَ أسلافنا للبحث عن الشحوم والسكريات، العنصرين اللذين ساعداهم على البقاء والاستمرار، لكنّ هذه الأغذية الجديدة غنيّة بالدسم والسكّر أكثر من أيّ شيء آخر عَثَرَ عليه أسلافنا أو اصطادوه، يُرضي توقنا مع شعورٍ بلذّةٍ أقوى ومكافأةٍ أعظم ومنبّهٍ ناتجٍ أشدّ من المُنبّه الذي يقدّمه لحم الطرائد الأصليّ أو الفاكهة الناضجة.

لذلك فإنّنا لا نمزح حين نقول إنّكم إذا فهمتم سيكولوجيَّة الأغذية السريعة، فستفهمون سيكولوجيَّة الدين، وباختراعنا للأطعمة السريعة والجاهزة، كنّا قد أسأنا استخدام -وبدون وعي أو إدراك من طرفنا- السمات التكيفيَّة القديمة للتوق والشهية وتأمين الشحوم والسكريات التي أبقَتْ أسلافنا أحياءً ومناسبين للتكاثر والتناسل.

نحن لم نتطوّرْ لنتوق لأكل المأكولات السريعة، لكنّ أدمغتنا مازالت تتقبّل هذا التوق بوصفه عمليَّة تكيفيَّة؛ هذا التوق والشهية لتناول الأغذية السريعة عبارة عن نتيجة ثانويَّة، وقد باتا الآن في منتهى الخطورة والتهديد لصحّتنا، لأنّهما إذا لم يُضبَطا ويُسَيطَر عليهما، فإنّهما

سيؤدّيان إلى مشاكل صحيَّة لم يسبقْ أن واجَهَها أسلافنا.

وهنا نصل إلى موضوع الدين، أو بصورة أدَق السمات التكيفيَّة التي تنبع منها معتقداتنا الدينيَّة.

هل ما نتوق إليه هو لصالحنا دوماً؟

الفصل الثاني (ملاحظات مُكَمّلَة)

هذه العبارة الجميلة ((نحن قِرَدَة متطوّرون، ولسنا ملائكة ساقطين)) مأخوذة من كتاب وليام أولمان الرائع:

William Allman's, *Stone Age Present: How Evolution Has Shaped Modern Life—From Sex, Violence and Language to Emotions, Morals and Communities* (New York: Touchstone, 1994).

إحدى القصص الجميلة المفضّلة لديّ: ((أنّ فتاةً صغيرةً عادَتْ إلى المنزل من مدرستها بعد درسٍ مبكّرٍ عن تطوّر البشر، سألَت والدتها: «هل نحن منحدرون من قِرَدَة؟»، توقّفت الوالدة قليلاً ثمّ قالت: «حسناً، نوعاً ما، لقد تطوّرنا عن رئيسيات»، فسألت الفتاة الصغيرة: «حسناً، من أينَ جاءت القِرَدَة؟»، فكّرت الوالدة للحظة ثم قالت: «مجلس التعليم بولاية كانساس»)).

يمكن الاطلاع على لمحة عامّة عن التطوّر البشريّ في كتاب نيكولاس ويد «قبل الفجر: استعادة التاريخ الضائع لأسلافنا» Nicholas Wade's, *Before the Dawn: Recovering the Lost History of Our Ancestors* (New York: Penguin Press, 2006)، وريتشارد بوتس وكريستوفر سلون: «معنى أن تكون

Richard Potts and Christopher Sloan's, *What It Means to* «إنساناً *Be Human* (Washington, DC: National Geographic Press, 2010) . وقد تشرّفتُ بِرفقَة كلّ من ريتشارد دوكينز، وتود ستيفيل، وغريغ لانغ، ومجموعة من جامعة هوارد، بجولة في معرض الأصول البشريّة الجديد في المتحف السميثوني بواشنطن، مع مديره ريتشارد بوتس، وقد قام في وقتٍ لاحق بمراجعة مُلَخّصي لعمليّة التطوّر البشريّ لضمان الصّحّة والدّقّة العلميّة، ويمكنكم زيارة هذا المَعرَض إذا أحبَبتُم؛ إنَّه أفضلُ طريقة للتعلّم في أحسن حالاته.

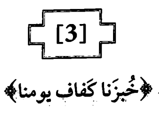
نحن نوعٌ اجتماعيٌّ، ولدينا القدرة على التعاون والتعاضد، وهذه القدرة لا تحظى بالتقدير والاهتمام الكافيين: انظر الفصل الأوّل: «قِرَدَة على مَتنٍ طائرة» من كتاب سارة هيردي «أمّهات وآخرون: تطوّر الفَهم المُتبادَل» *Apes on a Plane,*» of Sarah Herdy's book *Mothers and Others: The Evolution of Mutual Understanding* (Cambridge MA :Belknap Press of Harvard .University Press, 2009)

نحن قادرون على حَشر أنفسنا داخل طائرة ضيّقة، ومساعدة بعضنا البعض في حمل الأمتعة ووضعها على الرّفّ العلويّ، والتسامح والتساهل مع الأشخاص صعبي المِراس، لو كانت هذه الطائرة محمّلة بركّاب من قِرَدَة الشمبانزي، فبحلول الوقت الذي ستهبُط فيه ستكون غارقة بالدماء ومليئة بالأشلاء الجسديّة.

أنا مدينٌ لروبرت كورنويل لفكرة أنّ الدينَ هو أفضل الوجبات السريعة.

إنَّ فكرةَ مراكز «افعَلها مُجَدّداً Do it Again» الموجودة في أدمغتنا مُستوحاة من كتاب تيري بورنهام وجاي فيلان «الجينات اللئيمة: من الجنس إلى المال، إلى الغذاء: ترويض غرائزنا البدائيّة» Terry Burnham and Jay Phelan, *Mean Genes: From Sex to Money to Food: Taming Our Primal Instincts* (New York: .Penguin Press, 2000)

لا توجد طريقة أفضل لتثقيف المَرء حول نظريَّة التطوّر، ونظريَّة التركيب الداروينيّ المعاصرة، مدعّمَة بالأدلّة والبراهين أكثر من قراءة كتب ريتشارد دوكينز حسب الترتيب: «صانع الساعات الأعمى» *The Blind Watchmaker* (New York: Norton, 1996)، و«الجينة الأنانية» *The Selfish Gene,* 30th anniversary ed. (New York: Oxford University Press, 2006)، و«أعظم عَرض على سطح الأرض» *The Greatest Show on Earth* (New York: Free Press, 2009).



﴿خُبزَنا كَفاف يومنا﴾

التّوق لوَصِيّ

((علينا الاعتراف -بأيّة حال- أنّ الإنسانَ بكلّ ما فيه من صفات نبيلة ورفيعة... مازال يحمل داخل جسده طابَعاً يتعذّر محوَه عن أصله التدريجي والبطيء)) [تشارلز داروين].

تكمنُ داخلَ عقولنا مجموعةٌ كبيرةٌ من القدرات والمَلَكَات العقليَّة البقائيَّة بانتظار أن يتمّ تفعيلها وتوظيفها؛ هذه القدرات والمَلَكَات تساعدنا على توجيه وإرشاد أنفسنا في هذا العالَم، وبشكلٍ خاص العالَم الاجتماعيّ، نحن بالكاد نستطيع ملاحظتها، وحتى حين نلاحظها، فإنّنا نعدّها من المسلّمات ولا نلقي لها بالاً، لكنّها قدرات رائعة ومذهلة وكانت حيويَّة جداً وضروريَّة من أجل بقائنا واستمرارنا خلال مسيرة تطوّرنا، ومازالت في منتهى الأهميَّة والحيويَّة؛ هذه السماتُ الحيويَّةُ هي أحجار البناء الأساسيَّة للمعتقدات الدينيَّة.

نظامُ الرابطة

كما تقولُ الأغنيةُ المعروفة: جميعنا بحاجة لأحدٍ ما نتكئ عليه.

إنَّ نظامَ الرابطةِ أو الارتباط *Attachment System* هو أحدُ أقوى سِماتنا التطوّريَّة

وأكثرها فعاليَّة، ما كان لنوعنا أن ينجو، ناهيك من أن يتطوّر، بدون هذا النظام، فحين نُصاب بنكبة أو نَحزَن، فإنّنا نَلجأ إلى حضن أو وَصِيّ، هذه الحاجة الدافعة تبدأ منذ اليوم الأوَّل الذي نخرج فيه من رحم أمّهاتنا، ومِن وجهة نظر عصبيَّة كيميائيَّة أبكر من ذلك على الأرجح.

أوّل مَن تحدّث عنها الطبيبُ النفسيّ البريطانيّ جون بولبي خلال أربعينيات القرن العشرين، ثمّ فصّلها لاحقاً وتعرّضت لها عالِمة النفس الكنديَّة الأمريكيَّة ماري آينسوورث ضمن سلسلة من التجارب المُحكَمَة مع أمٍ وابنها، فنظام الرابطة هو أساس العلاقة بين الوالدين والابن؛ إنّها ميراثُ تاريخنا الثديي الذي يعود إلى ما قبل عشرات الملايين من الأعوام وأكثر.

يرى علماءُ الأعصاب الحاليون أنّ الارتباطَ عبارةٌ عن حاجة أوليَّة لدرجة أنّ هناك شبكات كاملة من المَشابك العصبونيَّة في الدماغ مُكرّسة لها، كما أنّ عمليَّة تشكيل روابط وصلات طويلة الأمَد مُعزّزَة بالأوكسيتوسين، وهو ببتيد عصبيّ سنناقشه بشكل أكثر تفصيلاً لاحقاً.

حين نكون صغاراً وضعفاء، يمثّل نظام الرابطة حَلاً لمشكلة العثور على المصدر الأساسيّ لأماننا وحمايتنا والتعلّق به، وحين نكبُر، فإنّنا نستخدم نظام الرابطة في علاقات الحبّ الرومانسيَّة، وبعد خُبُوّ هالة الرومانسيّة ضمن أيّ علاقة بين شريكين، يظلّ نظام الرابطة باقياً، فهو يستخدم العلاقة الأصليَّة بين الأب والابن لتوطيد الروابط والعلاقات بين البالغين.

يؤثّرُ نظامُ الرابطة على علاقات الراشدين الأخرى أيضاً، فعلاقات الصداقات القريبة تستفيد من نظام الرابطة، لهذا السبب تجد نفسك منجذباً نحو أصدقاء معيّنين دون غيرهم حين تَشتَدّ بك الظروف، فخلال عمليَّة تطوّرنا وتشكيلنا لجماعات صغيرة، ساعدتْ الارتباطات بشركاء آخرين وأفراد آخرين على تعزيز ودعم وجودنا وبقائنا كأفراد وكنوع.

أحد الأمثلة الصارخة والواضحة عن نظام الرابطة عند أسلافنا يورده أمامنا عالِمِا

أنثروبولوجيا الحفريّات آلان واكر وبات شيبمان في وصفهما لامرأة من فصيلة «الإنسان المنتصب/ الهومو-إريكتوس» تمّ اكتشاف بقاياها في إفريقيا، وقد أظهَرَتْ البقايا المُكتَشَفة أنّها ماتتْ نتيجة تسمّمها بفيتامين A، على الأرجح لأنّها تناولتْ كبد حيوان ما، وعلى الأرجح أنّها بعد التّسمّم عاشت لفترة أسابيع أو أشهُر، وكانت تعاني من نزيف حاد وألَم مُبَرّح.

هذه المرأة ما كانت لتنجو بين السافانا منذ أكثر من مليوني عام لو لَمْ يَكُن بجانبها وَصيّ أو أحَدٌ ما يعتني بها، لابدّ أنّ هناك أحداً ما وفّر لها الطعام والماء، وحَماها من الحيوانات المفترسة خلال الليالي الإفريقيّة.

اليوم، بِتنا نرى نظام الرابطة كلّ يوم من حياتنا وضمن علاقاتنا الشخصيَّة الخاصّة مع أصدقائنا، وأحِبّتنا، وشركائنا، وأولادنا.

في الحقيقة، نظام الرابطة هذا مقبولٌ على نطاقٍ واسع ولو لم يكُنْ بشكلٍ واعٍ في بعض الأحيان، الناس لا يتعلّقون بعائلاتهم فقط، بل يتعلّقون بحيواناتهم الأليفة أيضاً، وأحبّائهم، وأصدقائهم المقرّبين، وحتى صديقة تشارلي براون «لينوس» مرتبطة بمَلاءته ومتعلّقٌ بها، كما يتعلّق أيّ طفلٍ صغير بحيواناته المَحشوّة المفضّلة لديه، جميع هذه الأمور تجعلنا نشعر بالأمان والطمأنينة.

طبعاً، إنّ الأشخاصَ المتديّنين شديدو التعلّق والارتباط بإلههم/ آلهتهم، الأمر هنا ليس من قبيل الإيمان أو القفزة الإيمانيَّة رؤية نظام الرابطة وهو يعمل ليس فقط على مستوى التفاعلات الجسديَّة والبدنيَّة، بل على مستوى المَيل الإنسانيّ بالرغبة للانتماء أو الارتباط بأيّ بنية دينيَّة، بالإضافة إلى عبادة كائنٍ أوّليّ، ومُحِبّ، ومُطلَق لا يتغيّر.

تصوّروا طفلاً في الثانية من عمره يريد منكَ أن تحمله وترفعه وتداعبه، ستراه يمُدّ يديه نحوك ويرفعهما للأعلى إلى ما فوق رأسه يستعطفكَ متوسّلاً. تصوّروا كيف أنَّ أتباعَ مذهب العَنصَرَة من المؤمنين الملتزمين الذين يتحدّثون بلهجات غير مفهومة، ستراهم يمدّون أيديهم على امتدادها حتى تعلو رؤوسهم، متوسّلين مستعطفين الله بنفس الإشارة الطفوليَّة «احمِلني

وضمّني إليك»، قد نفقد العلاقات والروابط الإنسانيّة من خلال الموت، ومن خلال سوء التفاهم، ومن خلال البعد والجفاء والمسافات الطويلة، لكنّ اللهَ موجودٌ دوماً من أجلنا.

نحن نرى ذلك أغلب الأحيان في مجال علم النفس العمليّ/ أو العلاج النفسيّ التطبيقيّ، شابّة مريضة أُسيء لها جسديّاً، ونفسيّاً، وعاطفيّاً، وكلاميّاً، من قبل والدها بَحَثَت على نقيضه في الدين المسيحيّ: والدٌ مُحِبٌّ وحنون سيُحبّها ويقبل حبّها، وستطلب المَشورة والرشاد من الله من أجل قرارات حياتها، تتحدّث إليه كما يتحدّث أيّ شاب يافِع مع أبٍ مُحِبّ ومتفهّم وداعِم، وقلقة حول ردّة فعله كما تقلق الفتاة الشابّة من ردّات فعل والدها.

والحقيقة هنا هي أنّنا لا نفقد أبداً التوق لوَصيّ أو لشخص ما يهتمّ لأمرنا.

مَن ذا الذي سيَحميك أنتَ وأحبابكَ من المجاعة والفاقَة، والمَرَض، والكوارث، والموت، ومآسي الحياة الأخرى؟

حين كنتَ طفلاً صغيراً، قبل أن تتعرّف إلى مفهوم الإله، كان والداك إلهين بالنسبة إليك، فقد كانا قادرين على كلّ شيء، اليوم، إذا كانا ما يزالان على قيد الحياة، فإنّك تنظر لهما على أنّهما مجرَّدُ إنسانين عاديين، من دون أيّ قوى وقدرات أخرى أكثر من مجرّد الحماية، وتهدئة الجروح، وإرشادنا خلال مُعتَرَك حياتنا، بل ربّما أصبحا الآن يعتمدان عليكَ أنت.

الأب السماويّ المُطلَق العلم والمقدرة -إذا استعطفته وتوَسّلتَ إليه بشدّة وإخلاص- لا يحمينا نحنُ وأصدقاؤنا وأحبابنا فحسب، بل يساعدنا على إيجاد مجتمع من أفكارنا نفسها، ويحمينا من الخوف من الموت، ويضمَنُ لنا خلاصنا، ويمنحنا حياةً أخرى تُعَوّضنا عن آلام ومآسي جميع البشر؛ هذا هو وعد الدين، أهلنا لا يستطيعون الاعتناء بنا ورعايتنا إلى الأبد، لكن يهوه بإمكانه ذلك، لا يوجد ملحدون داخل ثغور الثعالب.

إنَّ الدينَ يمنحنا «أبوين سماويين»، شخصيّات ارتباطيّة عظيمة لَم نَختبرها في حياتنا اليوميّة من قَبل، ولَن نَختبرها، فحين نُصاب بنكبَة، فإنّنا نعود للإله الذي يَسمع الصلوات ويستجيب لها، ويحقّق لنا أمانينا، ويحمي أحبابنا وأصدقاءنا، ويضمن لنا مكافأة عظيمة مهما

بَلَغَت فَداحَة مشاكلنا.

وعلى غرار ذلك التّوق والشهية للأغذية السريعة واللذين ينتج عنهما نتائج عكسيَّة، تَنبع الأفكار الدينيَّة من السمات التكيفيَّة، لكنّ أديانَ اليوم تمنحنا دوافع ومحفّزات فائقة وجوائز مُجزية بإمكانها أن تَدفعَ الإنسان نحو البَحث اليائس عن المزيد منها، مثل الشهية إلى الأغذية السريعة، تظهر الأفكار الدينيَّة من السمات التكيفيَّة التي ساعدتْ أسلافنا على البقاء أحياء والاستمرار، لكن هذا لا يعني أنّ ذلك التوق وتلك الشهية مفيدان لنا ويعملان لأجل مصلحتنا.

ما الذي تفضّله: فول الصويا أم قطعة من اللحم المشويّ، نبات البروكلي أم قالب حلوى؟ أيّاً من هذه المأكولات تمنحكَ إحساساً عميقاً بالسعادة.

نظامُ الرابطةِ والرفض

هذه الحاجةُ إلى الارتباطِ تساهم في تسهيل قبول الدين وتصعيب رفضه والتخلّي عنه: ببساطة شديدة، نحن نريد أن نؤمنَ بشيء ما مُحِبّ وأزَليّ.

ويمكننا ملاحظة ذلك في حياة تشارلز داروين الخاصّة، فحين شَرَعَ في رحلته الشهيرة على مَتن سفينة «البيغل» من عام 1831 إلى عام 1835، كان ما يزال تكوينيّاً يؤمن بنظريَّة الخلق والتكوين، وحين عاد من رحلته، أعلى العيّنات التي جَمَعَها من طيور غالاباغوس إلى عالِم الطيور جون غولد، كان داروين قد أخَذَ في اعتباره فكرة أنّ الأنواع لَم تَكُنْ ثابتة أو غير قابلة للتغيّر، غير متطوّرة مع مرور الزمن، لنكُن أكثر تحديداً، ليس الخَلق الثابت وغير المتغيّر لله، وحين أخبره غولد أنّ طيور غالاباغوس كانت نوعاً ما من العصافير غير المعروفة للطبيعة ولم يتحدّثْ عنها أحدٌ من قبل، أصبح من الواضح بالنسبة إليه أنّ الأنواعَ كانت تتغيّر حسب البيئة ومع مرور الوقت.

في صيف عام 1837، فتح داروين دفتر ملاحظاته الشهير ورسم شجرة الحياة، مصوّراً الفكرة التي تنصّ على أنّ الأنواع تتطوّر، وأشار إلى أنّ ((الإنسان بتكبّره وغطرسته يَعدّ

نفسه نتيجة عَمَلٍ رائع، جديرٌ بتدخّل إلهٍ عظيمٍ من أجله، ومن التواضع -وهذا ما أعتقده- اعتباره خُلِقَ من حيوان)).

لَمْ يَكُنْ داروين قد فَهِمَ الآليّة التي تحدث من خلالها التغييرات على الأنواع مع مرور الزمن، وفي شهر سبتمبر من عام 1838، قرأ داروين كتاب مالتوس «مقال في مبادئ علم السكّان» التي جاء فيها أنّ الحيوانات تتكاثر وتتناسل وتُنجِب أكثر ممّا تحتاجه لتظلّ وتستمرّ، لذا توصّل إلى اعتقاده بأنّ هناك صراعاً يجري من أجل البقاء، وهؤلاء الأفراد الذين كانوا يمتلكون السمات والخصائص اللازمة للبقاء والتكاثر هم الذين بقوا واستمرّوا في المستقبل، كان قد فهم العمليّة تماماً.

لكن حتى داروين واجه صعوبة في رفض الدين والتخلّي عنه، لقد كان -في ذلك الوقت- خاطباً ابنة عمّه المتديّنة إيما ويدغوود، وفي يومٍ من أيام خريف عام 1838 لابدّ أنّه قد أطلَعَها على أفكاره، كتبت إيما تقول في رسالة وجّهتها إليه مازالت موجودة حتى الآن: ((عقلي يخبرني أنّ الشكوك الوجدانيّة النزيهة ليست خطيئة على الإطلاق، لكنّي أعتقد أنّه سيكون هناك شرخٌ واسعٌ بيننا)). لكنّهما تزوّجا في شهر يناير عام 1839.

كان قد أكمَلَ فكرته عن الانتقاء الطبيعيّ في ذلك الوقت، لكنّها بقيت غير منشورة لحوالي عشرين عاماً، ربّما لأنّه كان يعرف مدى الحزن والتعاسة التي سيجلبها نشر فكرته لزوجته، لكن خلال فترة خمسينيات القرن التاسع عشر، بات من الممكن ملاحظة الفرق والاختلاف بينهما في أيام الآحاد، كان يمشي برفقة إيما والأولاد إلى الكنيسة، وكانت تدخل هي والأولاد إلى الكنيسة، أمّا هو فكان يُكمِل مسيره.

توفّيت ابنته الغالية آني بعد إصابتها بمرض السل، وبموتها مات إيمانه بالله، وقبل عامٍ واحد من وفاته عام 1881، حين كان يوشك على الانتهاء من وضع سيرته الذّاتيّة، أعاد داروين قراءة الرسالة التي أرسلتها له إيما في شهر فبراير عام 1839، وكانت قد كتبت فيها قائلة: ((عسى ألا تقودكَ عادات البحث العلميّ إلى عدم الإيمان بشيء حتى يتمّ إثباته، وإلى التأثير على عقلك فيما يخصّ الأمور الأخرى التي لا يمكن إثباتها)).

كانـت إيـما مسـيحيَّة ملتزمة، وعـلى الأرجح كانت تشـعر بالتعاسـة والكَرب مـن أفكار زوجهـا، ومـن عـدم إيمانـه بعـد أن فَقَـدَه، وفي نهاية تلك الرسـالة كتـب داروين الملاحظة التاليـة: ((حـين أمـوت، فلتعلمـي يـا عزيـزتي بـأنّي قـد بكيـتُ عـدّة مـرّات وقَبّلـتُ هـذه الرسـالة... ت.د)).

لا يقتـصر الأمـر عـن كون نظـام الرابطـة جزءاً أساسـياً من الإيـمان الدينيّ فحسـب، بل إنّـه عـلى الأرجـح واحـدٌ مـن السـمات التكيفيَّة التـي تجعل التخـلّي عنـه والخروج منـه أمرٌ في غايـة الصعوبة.

يقـول كارل غيبرسـون في كتابه «إنقاذ داروين: كيف تكون مسـيحيّاً وتؤمن بالتطوّر»: ((لـديّ سـببٌ مُقنـعٌ وكافٍ للإيـمان بـالله، كان والـداي مسـيحيين ملتزمـين ومؤمنـين مُخلصـين، وأعتقـد أنّهـما كانا ليشـعُرا بخيبة الأمَـل لو أنّي رفضـتُ ديني، زوجتـي وأولادي يؤمنـون بـالله، وتـرك الإيـمان بالله وإنكاره سـيكون أمـراً كارثيّـاً، سيُشَـتّت عائلتـي ويُحزِن زوجتي)).

لكنّ أحبّاءنا ليسوا بحاجة لإخبارنا بشكلٍ مباشرٍ وصريح بأنّ تخلّينا وهَجرنا لما كان يُعتَبَر سابقاً معتقداً مشتركاً، أو عَدَمَ رغبتنا في مشاركة هذه المعتقدات بعد الآن، سيجعلهم تُعَساء ومكروبين.

نحن نعلم ذلك جيداً، لأنّ السماتِ التكيفيَّة البشريَّة الأخرى -التي أصبحت الآن أجزاءً حيويَّة من أدمغتنا- تسمح لنا بتوقّع ردّات فعلهم تجاه قراراتنا، حتى وإن لَم يقولوا شيئاً، وهي تبدأ مع قدرتنا على فصل عقولهم عن أجسادهم عقليّاً، والتي تَرجَع أصلاً إلى قدرتنا ليس على الإيمان بما لا نستطيع رؤيته فحسب بل على التفاعل مع الخفي وغير المرئيّ أيضاً.

نحن وُلِدنا مزوّدين بقدرة على قراءة ما قد يفكّر فيه الآخرون حتى وإن لم يكونوا بجانبنا ليخبرونا برأيهم، بطريقةٍ ما، جميع أولئك الذين نرتبط معهم يصبحون أحياناً أصدقاء خياليين.

الفصلُ الثالثُ (ملاحظاتٌ مُكَمّلَة)

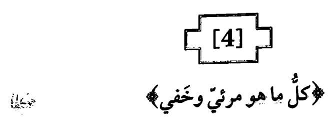
إنَّ الوصفَ الأقوى لأنثى الإنسان المنتصب Homo-Erictus التي نَجَتْ في سهول السافانا مع تسمّمها بفيتامين A، يأتي من كتاب آلان ووكر وبات شيبمان «حكمة العظام: بحثاً عن أصول الإنسان» Alan Walker and Pat Shipman's, *The Wisdom of the Bones: In Search of Human Origins* (New York: Knopf, 1996).

ويمكن رؤية مجموعة من عظامها في قاعة الأصول البشريَّة في متحف التاريخ الطبيعيّ بالعاصمة واشنطن، كان التشابه عادة مع أعضاء كنيسة العَنصَرَة وهُم يمُدّون أيديهم تَضَرّعاً إلى الله مع أطفال يمدّون أيديهم باتجاه أبويهم من أجل حَملهم فكرة أساسيَّة مقتبسة من لي كيركباتريك في تطويره لأفكاره عن العلاقة العميقة بين آليَّة التعلّق أو الارتباط والدين (التواصل الشخصيّ Personal Communication, 2010). انظر أيضاً: كتابه «الارتباط، والتطوّر، وسيكولوجيَّة الدين Lee Kirkpatrick's, *Attachment, Evolution, and the Psychology of Religion* (New York: Guilford Press, 2005). أنظر أيضاً كتاب جون بولبي: «الارتباط» John Bowlby, *Attachment* (New York: Basic Books, 1969).

كانت آمي آينسوورث أستاذة علم النفس في جامعة فيرجينيا التي ما يزال دفؤها ومودّتها الإنسانيين حَيّين في ذاكرتي، ويمكن العثور على مقدّمة ممتازة لعملها وعمل بولبي في مقال «أن تصبح مرتبطاً» بقلم روبرت كارين Becoming Attached في مجلة أتلانتيك الشهريَّة، والتي تمّ التوسّع فيه لاحقاً ليتحوّل إلى كتاب بعنوان: «أن تصبح مرتبطاً: العلاقات الأوليَّة وكيف تصيغ قدرتنا على الحبّ» Robert Karen, *Becoming Attached: First Relationships and How They Shape Our Capacity to Love* (New York: Oxford University Press, 1994).

فرانك سولاواي لديه مقال رائع يوضّح طريقة تفكير تشارلز داروين خلال تلك الفترة الحاسمة في أواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر عند اكتشافه نظريَّة التطور عن طريق الانتقاء الطبيعيّ، راجع فصل «لماذا رَفَضَ داروين نظريَّة التصميم الذكي؟» في كتاب «الفكر الذكي: العلم ضدّ حركة التصميم الذكي» «*Why Darwin Rejected Intelligent Design,*» in *Intelligent Thought: Science versus the Intelligent Design Movement*, ed. John Brockman New York: Vintage, 2006).

كما أنَّ تأثيرَ فقدان داروين لابنته آني رُوِيَ بشكلٍ جميلٍ ومؤثّر من قبل سليله راندال كينز في كتابه «صندوق آني: تشارلز داروين، وابنته، والتطوّر البشريّ» Randal Keynes in *Annie's Box: Charles Darwin, His Daughter and Human Evolution*، (London: Fourth Estate, 2001) والسيرة الذاتيَّة لتشارلز داروين ضمن مجلّدين طليعيين بقلم جانيت براون Janet Brown's, Tow Volume work, *Voyaging* (New York: Knopf, 1995) and The Power of Place .(Princeton, NJ: Princeton University Press, 2003)



[4]

﴿كلُّ ما هو مرئيّ وخَفي﴾

تصوّر الأرواح

((أعلى مستوى مُمكن في أيّ ثقافة أخلاقيَّة هو عندما نُدرك أنّ علينا السيطرة على أفكارنا)) [تشارلز داروين].

ثنائيَّةُ الروح/ الجسد

لأنّنا نحتاج إلى أن نعملَ مع الآخرين لكي نحيا، طوّرتْ عقولنا القدرة على إصدار افتراضات مُسبَقة عن الآخرين، لخلق حَدس أو تخمين يساعدنا على البقاء والتعايش المشترك في الأوضاع الاجتماعيَّة، لقد وُلِدنا وَوُلِدَ معنا قبولنا لواقع أنّ الآخرين مثلنا تماماً، عملاء قصديون لهم نواياهم ومقاصدهم وعقولهم الخاصّة، ولا يختلفون عنّا، مع أنّنا لَسنا قادرين على رؤية ما يدور داخل عقولهم.

أحدُ جوانب هذه العمليَّة يسمّى «فاصل الروح والجسد» أو «ثنائيَّة الروح/ الجسد»، وهو الرأي القائل إنَّ العقلَ والجسدَ كلٌّ منهما يعمل بطريقة مختلفة ومستقلّة، ومن دون أيّ تداخل بين الجانبين، نحن لا نستطيع تصوّر الأرواح ما لَم نعتبرْ العقل كياناً مستقلاً عن

الجسد، ونحن نقوم بذلك، لأنّ عقولَنا مُصَمّمة بهذه الطريقة ولهذا الغَرَض.

إنَّ المنطقةَ الأماميَّةَ الوسطى في أدمغتنا، الواقعة داخل التجويف بين العينين، تتضمّن الدارات والأدوات التي تساعدنا على الاستبطان وسبر أغوار الآخرين، وعلى إدراك وجودنا غير الماديّ، وحالاتنا الشعوريَّة والعاطفيَّة، ورَغَباتنا وأمانينا؛ هذه المنطقة أيضاً هي الجزء من دماغنا الذي يساعدنا على تأمّل «الأمور المجرّدة»: عقول الآخرين، ونواياهم، ومقاصدهم، ومعتقداتهم، ورغباتهم، ومشاعرهم؛ أي جميع سِماتِهِم غير الماديَّة.

هذه القدرة غير مُكتَسَبة، لا نتعلّمها، بل موصولة بأدمغتنا فطريّاً ومتجذّرة فيها، الدماغ يمثّل العقل والجسد في دارات عصبيَّة منفصلة ومستقلة، وهذا ما يسمح لنا بالفصل ما بين العقول والأجساد، لكي نشعر ونؤمن بأنّهما كيانان مختلفان ومستقلّان تماماً، الجزء الجانبيّ من الدماغ هو الجزء الذي نُدرك من خلاله الأشياء الماديَّة، والملموسة، والمرئيَّة، كوجوهنا وأجسامنا وتحرّكات الآخرين من حولنا، كما أنّه الجزء الذي نُدرك من خلاله العمليَّات غير الطبيعيَّة التي تحدث حولنا، كإدراك شيء ما يتحرّك حين لا يجب أن يتحرّك أبداً، الأفكار الدينيَّة فعّالة ومؤثّرة وراسخة لأنّها تتناسب بشكلٍ كاملٍ مع هذه البنية، هذه الثنائيَّة، هذا الانفصال بين الروح والجسد.

وعلى غرار العديد من المفاهيم المهمّة للدين، فإنَّ الانفصالَ المتحرّكَ والهامِد يمكن ملاحظته عند الأطفال والأولاد الصغار، فالطفل ذو الخمسة شهور الذي يرى صندوقاً يتحرّك من تلقاء نفسه سيخاف ويَفزَع، لكنّ الشخص المتحرّك جزء طبيعيّ من حياتنا اليوميَّة ولا يُسَبّب أيّ اضطرابٍ أو خوف في نفس ذلك الطفل، من الطبيعيّ جداً في عقل ذلك الطفل أن يفكّرَ بالعَمالة القصديَّة المتحرّكة، لكنّ شيئاً ما ماديّاً وساكناً -كالصندوق- لا يمكن أن يتحرّك من تلقاء نفسه كالعُملاء القصديين؛ أي الأشخاص الآخرين في هذه الحالة.

خلال تجربة طليعيَّة على الأولاد الصغار، قامَتْ عالِمَةُ النفس من جامعة كوينز بإيرلندا، جيسي بيرينغ، بعَمَل عرضٍ للدّمى، في هذا العَرض يقوم التمساح الدمية بابتلاع الفأر الدمية، عندها سألَت بيرينغ الأطفال عدّة أسئلة حول الفأر، هل مازال الفأر يأكل؟ كان الأطفال يعرفون أنّ الفأر لَمْ يَعُد بمقدوره الأكل، لكنَّهم كانوا يعتقدون أنّه يشتاق لأمّه؛ هؤلاء الأطفال الصغار نَسَبوا إلى الفأر الميّت حالة عقليَّة؛ أي إنّهم لم يكونوا قادرين على استيعاب فكرة أنّ الفأر لَمْ يَعُد موجوداً.

هذا المفهوم يطرأ غالباً خلال النقاشات حول الحقّ بالإجهاض، ويظهَر بصيغة مختلفة بعض الشيء: «ماذا سيكون شعوركَ لو أنّ أهلَكَ أجهضوك؟».

تظهر تجربة بيرينغ البسيطة والرائدة أنّه حتى الأطفال يُظهِرون نَمَطاً من الفصل بين الجسد والعقل، وهذا يعني أنّ الإيمانَ بالغيبيّ والماورائيّ هو شيء لا نكتسبه أو نتعلّمه من حضارتنا خلال نموّنا وانتقالنا من مرحلة الطفولة إلى المراهقة والرشد؛ إنَّ الإيمانَ بالغيبيّ هو أداة أصليَّة، ولا تحتاج لأيّ تلقين أو تعليم اجتماعيّ.

يُظهِرُ الأطفال أيضاً جانباً آخر من جوانب أساس الاعتقاد الدينيّ، أكثر من نصف الأطفال الذين بَلَغوا عامَهُم الرابع لديهم أصدقاء خياليون، ويتبيّن أنّ هؤلاء الذين يملكون أصدقاء خياليين يَنضجون ليصبحوا أفراداً أكفاء أكثر من الناحية الاجتماعيَّة، بشكلٍ أو بآخر، إنّ الله هو صديقنا الخياليّ.

مهما كان نوع الماورائيّ الذي تفرضه علينا ثقافتنا، فإنّه يحطّ على عقول مُبَرمَجَة مُسبَقاً لقبول تلك الحياة العقليَّة البشريَّة والمقدرات التي تنفلت من الجسد الحي أو الميّت؛ إنَّ المعتقداتِ الماورائيَّة للدين بالكاد تستغلّ الطريقة التي يعمَل بها عقلنا فيما يتعلّق بالآخرين وعقولهم ورغباتهم، لذلك يبقى العقل وكلّ ما يدور في فَلَكه منفصلاً عن الجسد.

إنَّ فهماً أوسع لنظام الرابطة وثنائيَّة العقل/ الجسد يعتبر مجرَّد نقطة البداية

لفهـم الطـرق التـي يمكـن مـن خلالها خـداع العقـل والتلاعـب بـه لكـي يؤمـن ويصـدّق.

الفصلُ الرابعُ (ملاحظاتٌ مُكَمّلَة)

إنَّ البصـيرةَ المتعمّقـة في إشـكاليَّة ثنائيَّـة العقـل والجسـد وانقسـامهما تشـكّل جـزءاً مـن بنيـة المسـارات المعرفيَّـة في الدمـاغ موجـودة ضمـن مقـال ماثيـو ليبرمـان: «مـا الـذي يجعـل الأفـكار العظيمـة ترسَـخ؟» ضمـن العمـل الضخـم الـذي حَـرّرهُ ماكـس بروكـمان بعنـوان: «مـاذا بعـد: تطلّعـات حـول مسـتقبل العلـم».

Matthew Lieberman's, «*What Makes Big Ideas Sticky?*» in Max Brockman's edited volume *What's Next: Dispatches on the Future of Science* (New York: Vintage, 2009)

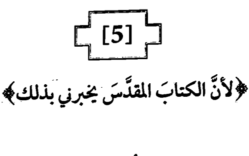
عُثِـرَ عـلى ملخّـص لعمـل جيـسي بيرينـغ وتجاربـه البارعـة والأنيقـة في مقالـه «علـم النفـس المعـرفيّ للإيـمان بـما هـو خـارق للطبيعـة» في مجلـة العلـوم الأمريكيَّـة، عـدد92 (2006).

Jesse Bering's, «*The Cognitive Psychology of Belief in the Supernatural,*» in American Scientist 92 (2006):142–149

إنّـه يكتـب بشـكلٍ جيـد، ومقالاتـه لمجلّـة العلـوم الأمريكيَّـة للعقـل Scientific American Mind تسـتحقُّ القـراءة دومـاً، وترقّبـوا جيـداً كتابـه الـذي سـيصدر قريبـاً «غريـزة الإيـمان: سـيكولوجيَّة الأرواح، والمصـير، ومعنـى الحيـاة» المُزمَـع نـشره عـام 2011.

The Belief Instinct: *The Psychology of Souls, Destiny, and the Meaning of Life.*

للاطّلاع أكثر على وصفٍ حَيّ ودقيق للتأثير المُريح للأصدقاء الخياليين بالنسبة إلى الأطفال، انظر قصّة الفتاة الصغيرة مع «الرجل الأرجواني الصغير» في كتاب «وهم الإله» لريتشارد دوكينز Richard Dawkins', *The God Delusion* (New York: Houghton Mifflin, 2006), 349



﴿لأنَّ الكتابَ المقدَّسَ يخبرني بذلك﴾

الإيمانُ باللامرئي

((بقَدرِ ما تبدو أخلاقُ العهدِ الجديدِ جميلةً وأنيقة، من الصعب إنكار حقيقة أنّ جمالها وكمالها يقومان على التفسيرات التي نُضفيها الآن على المجازات والكنايات فيها)) [تشارلز داروين].

المعرفةُ المنفصلة

تصوّروا أنّ الطريقةَ الوحيدةَ التي يمكنكم من خلالها التفكير بها قَد يحدث داخل عقل شخصٍ آخر كانت في أن يجلسَ ذلك الشخص أمامك أو قبالتك. إنَّ العلاقاتِ الإنسانيّة كما نعرفها ستكون عندئذٍ مستحيلة وغير ممكنة، والأمر نفسه ينطبق على أسلافنا القدماء، ينبغي لنا أن نُقيّمَ الأفكار والأحاسيس التي قد تدور في خلد الآخرين، حتى حين يكون هؤلاء الآخرون غائبين عنّا أو غير متواجدين أمامنا.

ولهذا السبب، تكيّفَ البشرُ بشكلٍ فريدٍ لتقبّل فكرة وجود الكيانات غير المتجسّدة والافتراض بأنّها ستتصرّف بهذه الطريقة أو تلك، أغلبنا يفعل ذلك بشكلٍ يوميّ، هل سبق لك أن فكّرتَ بِردٍّ مثاليّ على تحدٍ معيّنٍ بعد فوات الأوان، أو تخيّلتَ كيف سيكون ردّك وكيف

كان يمكن لتلك المحادثة أن تجري؟

قد تكون مستلقياً وحدك، وأنت تفكّر في حَلٍّ لمشكلة اجتماعيَّة أو مِهَنية، أو قد تتدرّب في عقلك على الطريقة التي ستتقدّم فيها بالزواج من صديقتك، أو تطلُبَ علاوَةً من مديرك...؟

نحن البشر نمتلك مقدرةً عاليةً على خَلق وتنفيذ عدّة تفاعلات معقّدة مع الآخر غير المرئيّ/ غير الماثِل أمامنا -مديرنا في العمل، وشريكنا أو شريكتنا، وصديقنا- داخل عقولنا، بغضّ النظر عن الزمان أو المكان، في الماضي أو في المستقبل.

لقد خُضْتَ جدالاً، وكنتَ على خَطأ، وترغب الآن في الاعتذار، إذاً عليكَ أن تخطّط أولاً للطريقة التي ستقدّم بها اعتذارك، ستتمرّن عليها عقليّاً، متصوّراً الطريقة أو المنحى الذي ستجري عليه، والشكل الذي سيتفاعل معه الطرف الآخر، وكلّ ذلك يحدث خلال حياتك اليوميَّة العادية.

هذه العمليَّة تسمّى «بالمعرفة المنفصلة» أو «الإدراك المنفصل» *Decoupled Cognition*، وهي ضروريَّة جداً ومهمّة من أجل الاعتقاد الدينيّ.

بإمكاننا فصل إدراكنا عن الزمان والمكان والظروف، وتنشأ هذه القدرة خلال مرحلة الطفولة، ويمكن ملاحظتها أثناء لعب الأطفال، قد يرى الطفل غطاء زجاجة البيبسي صحناً طائراً، مع أنَّ الطفلَ يُدرك تماماً ماهيتها، لكنّه يختار تجاهل حقيقتها والتفكير فيها على أنّها صحنٌ طائر، بخواص وسِمات متَخيّلة على أنّها كذلك فعلاً، الطفل هنا يقوم بفصل إدراكه عن المحيط.

إنّ متابعي الأفلام السينمائيَّة والمسرح يقومون بذلك على الدوام؛ إنّهم يدركون تماماً أنّ ما يجري من أحداث أمامهم ليس حقيقيّاً، ومع ذلك فإنّهم حين يشاهدونه يختارون الاعتقاد أو الإيمان بأنّ الأشخاصَ الذين في الفيلم أو على المسرح موجودون فعلاً، وأنّهم يعيشون في مكانٍ وزمانٍ مختلفين، وأنّ السيارة قد انفجرت فعلاً وتحوّلت إلى أشلاء، وأنَّ الشخصيَّةَ الفلانيَّةَ قد عادتْ إلى الحياة.

نحن كبالغين أو راشدين، هذه الآليَّة مهمّة جداً وحيويَّة بالنسبة إلينا من أجل التذكّر والتخطيط، وخاصَّةً حين نتحرّك إلى الأمام أو الخلف في المكان والزمان والظروف أثناء تفكيرنا حول تدبير وإدارة علاقاتنا عبر حياتنا اليوميَّة، نحن نتذكّر لقاءنا مع شركائنا، ومقابلتنا مع مديرنا، نخلق سيناريوهات لمحادثات ستجري في المستقبل، جميع هذه التفاعلات تجري مع أشخاص آخرين ليسوا موجودين أمامنا آنيّاً.

إنَّ التفاعلَ مع الآخرين داخل عقولنا عمليَّة طبيعيَّة جداً، أغلب الناس يتحدّثون عقليّاً مع أحبّائهم الذين غادروهم للتوّ أو ماتوا منذ فترة قريبة، وتمثّل عبادة الأسلاف والإله أو الآلهة امتداد طبيعيّ لهذه العمليَّة، أو القفزة الإيمانيَّة، سمّها إن شئت، إنَّ قدرةَ عقولنا على خلق تفاعلات معقّدة ومتراكبة مع الآخر اللامرئيّ تمتدّ وتتوسّع بكلّ بساطة.

آليَّاتُ نظريَّة العقل

هناك مَلَكَةٌ عقليَّةٌ مذهلةٌ وشبيهةٌ جداً بمَلَكَة الإدراك المنفصل، وهي عبارة عن مجموعة من الآليَّات داخل عقولنا تُعرَف باسم «آليَّات نظريَّة العقل» *Theory-of-Mind Michanisms*، وهذه التسمية غير ملائمة لهذه الهبة العظيمة.

قبل أن نستطيع تصوّر كيف يمكن لأيّ شخص أن يتفاعل، علينا أولاً أن نفهم بطريقةٍ معيّنة كيف يفكّر ذلك الشخص، ونحن قادرون على القيام بذلك، فلدينا قدرة داخليَّة على «استقراء» أفكار الآخرين، و»استبطان» ما يعتقدونه ويؤمنون به ويقصدونه، وبتفصيلٍ مُذهلٍ ودقّة تامّة تقريباً، والخروج بافتراضات معيّنة بناءً على حدسنا واستبطاننا.

فكّر في الأشخاص الذين تعرفهم جيداً، على الأرجح أنّك تستطيع أن تخمّن وبدقّة عالية ما يفكّرون فيه في لحظة معيّنة، وبإمكانك تقديم تخمين دقيق لما يعتقدونه حولك، هذه القدرة على الأرجح ساعدتْ أسلافنا القدماء في التعرّف إلى الصديق من العَدوّ، والتفاعل

الاجتماعيّ فيما بينهم، والتخطيط وفقاً لذلك من أجل البقاء والاستمرار.

هذه المقدرة على الانتباه المشترك والموحّد قد تكون أساساً للتفرّد والتميّز الإنسانيين، فمن بين جميع الرئيسيات نحن الوحيدون القادرون على الانخراط في تفاعلات معقّدة مع الآخرين، ليس قراءة أفكارهم فقط، بل التعرّف إليهم حين يحاولون قراءة أفكارنا واستبطان عقولنا وأحاسيسنا، نحن لا نشعر بذلك، ونعتبره من المُسَلّمات لأنّه يبدو أمراً بسيطاً للغاية، لكنّه ليس كذلك.

على سبيل المثال، قد نخطّط أنا وأنت للالتقاء في السينما الساعة التاسعة مساءً، الحقيقة أنّنا قد بَنَينا خطّة لنخوض حَدَثاً مُشتَرَكاً بيننا، كلُّ واحدٍ منّا يعرف التزام الآخر بهذه المهمّة، وأنا أعلم بأنّك ستنزعج من عادتي في التأخّر عن مواعيدي، وأنت تعرف بأنّي أعرف بانزعاجك من عادتي السيئة هذه، وحين أصل إلى الموعد في الوقت المحدّد قبل بداية الفيلم، سأراك مبتسماً. أنا اعلمُ جيداً أنّك مسرورٌ وأدرك سبب سرورك، وأنتَ تعلم بأنّني أرى وأفهم سرورك وسعادتك، ولا حاجة بنا لقول كلمة واحدة حيال هذا الأمر.

خطوةٌ واحدةٌ فحسب لتصوّر عقل غير مُتَبَلور شبيه بالإنسان بأفكاره، وأحاسيسه، ومقاصده تجاهك وتجاه إخوانك من البشر، بإمكانكَ تخيّل هذا العقل الشبيه بالإنسان والانخراط معه في حديث مشترك، «سنَبني كاتدرائيَّة معه ومن أجله، وسيكون مسروراً منّا، وسنعرف أنّه مسرورٌ منّا إذا حالَفَنا الحظّ وفَتَحَ لنا أبوابه».

القصديّة

هناك ظاهرةٌ شبيهةٌ تقريباً تسمّى «القصديَّة» *Intentionality*، ويُرمَزُ لها عادةً بالحرف «س/ s»، وهي مَلَكَة أخرى غير معروفة مأخوذة على أساس أنّها من المُسَلّمات البدهيَّة، وهي على النحو الآتي:

الترتيبُ الأوَّل: «أنا أعتقد».

الترتيبُ الثاني: «أنا أعتقد بأنّك تعتقد».

الترتيبُ الثالث: «أنا أعتقد أنّك تعتقد أنّي أعتقد».

الترتيبُ الرابع: «أنا أعتقدُ أنّك تعتقدُ أنّي أعتقدُ أنّك تعتقد».

دعونا نجرّب الأمر على نحوٍ مختلف:

الترتيبُ الأوّل: «أنا آمُل».

الترتيبُ الثاني: «أنا آمُل بأن يُعجبكَ هذا الكتاب».

الترتيبُ الثالث: «أنا أعلمُ أنّكَ مُدرِكٌ بأنّي آمُلُ أن يُعجبكَ هذا الكتاب».

الترتيبُ الرابع: «يمكنك أن تكونَ متأكّداً بأنّي أعلَمُ أنّك مُدرِكٌ بأنّي آمُلُ أن يُعجِبكَ هذا الكتاب».

ويمكن أن يتنوّعَ هذا الترتيب بحسب اختلاف الظروف وتنوّعها، تصوّر موقفاً اجتماعيّاً ما، امرأة تتحدّث إلى رجل وتعتقد أنّه شخصٌ مُمِلٌّ للغاية، لكنّ الرجلَ يعتقد أنّ المرأةَ تظنّه شخصاً جَذّاباً، وفي زاوية من الغرفة يَقبَعُ زوج المرأة يراقبها، وهو يعتقد أنّ زوجته تغازل أو تلاطف هذا الرجل، لأنّه يعرف أنّها غاضبةٌ منه وتسعى للانتقام منه، وهذا ما قد تكون تفعله هي، إذ إنّها تعرف تمام المعرفة أنّ هذا من شأنه أن يُغضِبَ زوجها.

هذا النمطُ من الوعي أو الإدراك لما يعتقده الآخرون، وما يعتقده هؤلاء الآخرون حول ما نعتقده أو نؤمن به، ضروريّ جداً وحيويّ من أجل علاقاتنا اليوميّة وحياتنا الاجتماعيّة.

والدين بدوره يستغلّ قصديّتنا بسهولة شديدة:

الترتيبُ الأوّل: «أنا أؤمن».

الترتيبُ الثاني: «أنا أؤمنُ أنّ الله يريد».

الترتيبُ الثالث: «أنا أؤمنُ أنّ الله يريدنا أن نعيشَ حياةً مستقيمة».

الترتيبُ الرابع: «أريدكَ أن تؤمنَ أنّ الله يريدنا أن نعيشَ حياةً مستقيمة».

الترتيبُ الخامس: «أريدكَ أن تعرفَ أنّنا نحن الاثنان نؤمن أنّ الله يريدنا أن نعيشَ حياةً مستقيمة».

يشيرُ عالِمُ النفسِ روبن دنبار إلى أنّ الترتيبَ الثالثَ أو المَقصَدَ الثالث -كما يسمّيه- عبارة عن «ديانة شخصيَّة»، لكن لكي تقتنعَ أكثر، يجب أن يكون هناك مقصَدٌ رابع أضافَهُ أحدٌ ما لحالتكَ العقليَّة، طالباً منكَ أن تؤمن، الأمر الذي ينتج عنه «ديانة مجتمعيَّة»، حتّى إن قَبِلتَ حقيقة الدين الاجتماعيّ، فإنّها لا تُلزِمَكَ بشيء، وإن أضَفتَ مَقصَداً خامساً، وقَبِلتَ بالزعم، وأصبَحتَ مؤمناً، تكون بذلك قد أنشأتَ «ديناً مجتمعيّاً»؛ لذلك يمكن للناس مجتمعين أن يفرضوا التزامات معيّنة، ويُطالبوا الآخرين بالتصرّف بطريقة معيّنة.

بإمكانكَ ملاحظة هذه المقدرة في القصديَّة المشتركة تتطوّر عند الأطفال قبل أن يتمكّنوا من التكلّم، خُذْ طفلاً صغيراً كمثال، أجلِسهُ على الأرض، ودَحرِج أو نَطنط كُرة إلى الأمام أو الخلف، ستراه ينضمّ إلى اللعبة ويتفاعل معكَ بسهولة، ثمّ دَعْ الكُرَة تتدحرج مبتعدةً عن متناول أيديكما أنتَ وهو، سترى أنّه يذهب ليأتي بها، ويضعها بين يديك، ويومئ لك برغبته بمتابعة اللعب؛ إنّه يُدرك أنّك تعرف اللعبة جيداً ويعرف أنّك تعرف أنّه يريد أن يلعب، هذه القصديَّة المشتركة للعمل المشترك قد تكون أساس اللغة، إذا كُنّا أنا وأنت متحدّثان باللغة الإنكليزيَّة، فكِلانا يُدرك أنّ الآخر يعرف معنى الكلمة الاعتباطيَّة «كتاب». وإذا كُنّا فرنسيين، عندئذٍ نُدرك كلانا، وكلٌّ منّا يعرف أنَّ الآخر يعرف، أنّ معنى هذه الكلمة هو *livre*.

إنَّ عمليَّةَ الخروج بافتراضات صحيحة ودقيقة نسبيّاً حول الآخرين يمكن أن تلعبَ دوراً أساسيّاً حتى حين نقابل أشخاصاً لا نعرفهم، أو لا نعرفهم بشكلٍ جيد، لقد طوّرنا سِمات تكيفيَّة منفصلة ومكرّسة لرؤية وتقييم تحديقة العين وما يخفى وراءها، وربَّما هذا أحد الأسباب الكامنة وراء المَثَل الشائع ((العين مرآة الروح))، إذ يمكننا معرفة الكثير من المعلومات عن الآخر من خلال نظرة عينيه، وهذا ما سمح لأسلافنا على الأرجح تحديد

درجة ومستوى العدائيَّة لدى الآخرين تجاههم سواء من ضمن القبيلة أو من خارجها، أو التعرّف إلى العدوّ والصديق من خلال لقاءات عابرة، فإذا سبق لك أن لَمحتَ تحديقة الطفل الثابتة فيك رغم عدم معرفته بك، فإنّك قد شهِدت أوضح مثالٍ عن هذه العمليَّة.

لقد تعرّضَ لهذه المَلَكَة بتفصيلٍ كبير عالِمُ النفس سيمون بارون كوهين من جامعة كامبريدج، الذي أظهر مع الكثير من التفاصيل مقدرتنا العقليَّة على قراءة عدّة مئات من الحالات العاطفيَّة -وبدقّة عالية- المنفصلة عن الآخرين وذلك من خلال مجرّد النظر في أعينهم بكلّ بساطة، باختصار؛ يمكننا إطلاق أحكام وافتراضات دقيقة ومعقّدة حول شخصٍ لا نعرفه، أو بالأحرى حول عقلٍ/ دماغٍ لا نستطيع رؤيته.

الإنقال

إنَّ قولنا عن الله بأنّه «أبونا» لا يضرب فقط على أوتار ارتباطنا، بل أيضاً أوتار سِمَة تكيفيَّة في غاية الأهميَّة يُطلَقُ عليها تسمية «الإنقال» *Transference*، وهي سِمَة مهمّة جداً وخاصّةً حين نريد فَهمَ سِمات معيّنة في الدين.

جميعنا نؤسّس علاقاتنا اليوميَّة خلال حياتنا على أساس علاقات مبكّرة، فكما أنّنا تعلّمنا المَشي والكلام خلال مرحلة مبكّرة من حياتنا، فإنّنا نتعلّم استراتيجيَّاتٍ وطرقاً للتعامل الآخرين؛ هذه الاستراتيجيَّات المبكّرة في العلاقات تشكّل ميّزات وسِمات شخصيَّة ثابتة ومستقرّة؛ إذ إنّها في أسوأ الحالات أو في أحسنها تصبح القواعد والخطوط العريضة التي نستخدمها لإدارة وتصريف علاقاتنا اللاحقة.

على سبيل المثال: إنّنا كبالغين نرتبط بالشخصيَّات المرجعيَّة والسلطويَّة بالطريقة نفسها التي كنَّا نرتبط بها خلال سنوات طفولتنا المبكّرة، نحن نفترض أنّ هذه المرجعيَّاتِ الجديدة ستستجيب لنا كما كان يستجيب آباؤنا وأقاربنا حين كنّا أطفالاً، فنحن نقيّم مواقفنا تجاه شخصيَّات الحاضر على أساس تلك التجارب السابقة، فإذا

كانتْ تلكَ التجاربُ المبكّرةُ صعبةً وقاسيةً، فإنّنا سنفترض على الفور أنَّ المرجعيَّاتِ الحاليَّة ستُعاملنا بالطريقة نفسها؛ أي بطريقة سيئة، لذلك نقوم بتكييف وتعديل علاقتنا بها وفق ما نراه مناسباً، وحتى حين يكون الأمر مختلفاً، أي حين تعاملنا الشخصيَّة المرجعيَّة أو السلطويَّة بطريقة حَسَنَة.

لكن لماذا تطوّرت هذه المقدرة على الإنقال في العقل البشريّ، ما هي المشاكل التي تحلّها، وما هي الوظائف التكيفيَّة التي تؤدّيها؟

نحن نستخدم اختصار «الإنقال» للمشاركة في مشاعر الآخرين ومواقفهم التي شاركناها مع الشخصيَّات المرجعيَّة المهمّة خلال حياتنا اليوميَّة.

في أحسن الأحوال، إنَّ تأسيسَ العلاقاتِ الحاليَّة على علاقات سابقة في الماضي -سواء الحقيقيَّة منها، أو الخياليَّة، أو التي كنّا نتمنّى إقامتها- هي طريقة فعّالة لتوقّع النتائج المُرتَقَبَة، تخيّل كيف سيكون الأمر لو أنّه كان علينا أن نعيدَ تعلّم مهارات التواصل مع الآخرين خلال كلّ علاقة جديدة نقيمها مع شخص جديد.

في كلّ يوم، يشهَد الأطباء النفسيّون العديد من الطرق الجديدة التي تشوّش فيها علاقات ماضية العلاقات الجديدة، وحين يُعاد تكرار ذلك الإنقال في العلاج عن طريق التحليل النفسيّ، تصبح تفاصيل الإنقال ذاتها ساحة العلاج.

لكن ما علاقة كلّ ذلك بالدين؟

فكّروا في جميع عمليَّات الإنقال الممكنة التي جَمَعَها الاعتقاد الدينيّ وضمّها إلى منظومته، ينظر المسيحيون إلى الرّبّ بوصفه أباً، وإلى مريم بوصفها الأم، وهكذا، ثمّ فكّروا كيف أنّ هذه المعتقدات يمكن أن تندمجَ مع الإنقال الشخصيّ: الآباء البشريون، الأخوة والأخوات والأقارب، والأفراد المقرّبون، إنّ علاجَ التحليل النفسيّ للأفراد المتديّنين عادةً ما يكشف عن علاقات مبكّرة تتحوّل وتساهم في معتقدات المريض الدينيَّة.

الفصلُ الخامس (ملاحظات مُكَمِّلَة)

يشرحُ هذا الكتابُ نظريَّةَ الاعتقادِ الدينيّ كَمُنتَج ثانويّ، وهناك نظريَّةٌ أخرى مفادها أنَّ الإيمانَ الدينيّ ما هو إلا جانب مُنفَصِل ومتأصِّل في الطبيعة البشريَّة ونتاج لعمليَّات انتقاء الجماعة، يجب على القارئ المُهتَمّ بمتابعة هذه النظريَّة أن يطّلعَ على كتاب «كاتدرائيَّة داروين» لديفيد سلون ويلسون: David Sloan Wilson's, *Darwin's Cathedral: Evolution, Religion and the Nature of Society* (Chicago: University of Chicago Press, 2002).

ونيكولاس ويد، «غريزة الإيمان: كيف تطوّر الدين ولماذا مازال حتى الآن؟» Nicholas Wade's, *Faith Instinct: How Religion Evolved and Why It Endures* (New York: Penguin Press, 2009). وبالنسبة إلى الشخص المهتمّ بالنقاش الذي يدور حول فرضيَّة «التكيّفات الانتقائيَّة للجماعة» ضدّ «نظريَّة النتاج الثانويّ»، عليه أن يرجعَ إلى ورقة ريتشارد سوسيس: «جدال التكيفيّ مقابل أنصار نظريَّة المنتج الثانويّ حول تطوّر الدين: خمسة أخطاء شائعة عن برنامج التكيّف» Richard Sosis's paper, «*The Adaptationist-Byproduct Debate on the Evolution of Religion: Five Misunderstandings of the Adaptationist Program*,» Journal of Cognition and Culture 9 (2009):315-332.

وللاطلاع أكثر على النظريَّة السلوكيَّة للدين، راجع كتاب لايل ستيدمان وكريغ بالمر: «الخارق للطبيعيّ والانتقاء الطبيعيّ: تطوّر الدين» Lyle Steadman and Craig Palmer's, *The Supernatural and Natural Selection: The Evolution of Religion* (Boulder, CO: Paradigm Publishers, 2008).

وقد وُضِّحَتْ أهميَّةُ الإدراك المنفصِل للدين في كتاب باسكال بوير: «الدين مُفَسَّراً: الأصل التطوّريّ للمعتقدات الدينيَّة» Pascal Boyer's, *Religion Explained:*

The Evolutionary Origin of Religious Belief (New York: Basic .Books, 2001)

عُثِرَ على تفسير روبرت دونبار لاستخدام الدين لآليّة القصديّة المكثّفة في مقاله «نحن نؤمن» في دورية العالِم الجديد، عدد 189 (2006)، صـ30-33.

.Robert Dunbar's, «*We Believe,*» New Scientist 189 (2006):30–33

النظرية القائلة إنّنا وُلِدنا «إيثاريين بالفطرة» ثمّ تطوّرنا لنصبح «أنانيين» محبّين للذات هي في الأصل لمايكل توماسيللو، عالِم النفسِ التطوريّ الذي يدير معهد ماكس بلانك للأنثروبولوجيا التطوريّة في لايبزيغ، بألمانيا، كما أنّ تجاربَ المعهد مع الأطفال الصغار والشمبانزي التي توظّف القدرات الفطريّة للتعاون والتعاضد وفهم أهداف الآخرين رائعة وينبغي الاطلاع عليها، ولدى توماسيللو وفريقه العديد من المقالات والأوراق العلميّة، كما له كتاب بعنوان «لماذا نتعاون؟» Michael Tomasello's,

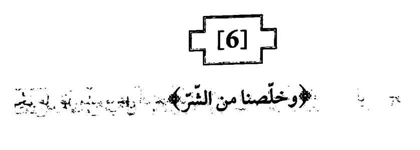
.«*Why We Cooperate* (Cambridge, MA: MIT Press, 2009)

كما أنَّ فكرةَ نشوء اللغة من مجموع النوايا المشتركة طُوِّرَت بالكامل في كتاب توماسيللو: «أصولُ التواصلِ البشريّ» Tomasello's, *Origins of Human* .*Communication* (Cambridge, MA: MIT Press, 2010)

وجديرٌ بالتنويه أنّ الممثّل الأمريكيَّ الكوميديَّ ساشا بارون كوهين، لديه ابن عَمّ يُدعى سيمون بارون كوهين يعمل عالِمَ نفسٍ في جامعة كامبريدج، والذي طوّر بشكلٍ كبيرٍ فَهمَنا لمتلازمة آسبرغر وطيف أمراض التوحّد؛ إنّه يرى أنّ أدمغةَ الذكور مُوَجّهة نحو التنظيم، أمّا أدمغة الإناث فتتوجّه نحو التعاطف والحنان، إنّ القدراتِ النظريّة للعقل الأنثويّ متفوّقة على الرجال، كما أنّ طيف أمراض التوحّد تمثّل الدماغ الذكريّ في أقصى صورِهِ تطرّفاً، ولديه العديد من الأبحاث والأوراق العلميّة، وكتاب يسهل الوصول إليه بالنسبة إلى القارئ المهتمّ عنوانه «الاختلاف الجوهريّ: عقول الذكور والإناث والحقيقة وراء التوحّد» Simon

Baron-Cohen, «*The Essential Difference: Male and Female Brain and the Truth about Autism*» (New York: Basic Books, 2003). وغالباً ما يَصعَب على الرجال تطوير قدراتهم على التعاطف، وقد أظهَرَتْ دراسات منذ فترة طويلة أهميَّة رؤية الوجوه بالنسبة إلى الأطفال الصغّار حتّى الخُدّج.

إنَّ وصفَ آليَّة الإنقال/ أو التحويل كآليَّة نفسيَّة طبيعيَّة للعقل موجود في فصل ضمن كتاب لراندولف نيس وآلان لويد حول الدفاعات النفسيَّة المتطوّرة، «تطوّر الآليّات النفسيَّة الديناميكيَّة» في كتاب «العقل المتكيِّف: علم النفس التطوّريّ وتوليد الحضارة» Randolph Nesse and Alan Lloyd's chapter on evolved psychological defenses, «*The Evolution of Psychodynamic Mechanisms*,» in *The Adapted Mind: Evolutionary Psychology and the Generation of Culture*, ed. Jerome Barkow, Leda Cosmides, and John Tooby (New York: Oxford University Press, 1992).



أنسَنَةُ الله/ الآلهة

((جوهرُ الغريزة هو أنّنا نتبعها بعيداً عن العقل)) [تشارلز داروين].

ميزةٌ أخرى فريدة يفضّلها الدين، وهي ميلنا ونزوعنا نحو إضفاء قدرات أو تأثيرات إنسانيّة [وكالة] على كلّ ما يحيط بنا تقريباً.

لماذا نخطئ عادةً ونخلُط بين ظلّ ولصّ، لكنّنا لا نخلط بين اللصّ والظّلّ؟

إذا سَمِعتَ باباً يُغلَقُ بعنفٍ، فلماذا تتساءل مَنْ قام بذلك قبل أن تضعَ في اعتبارك أنّ الريحَ ربّما هي السبب، لماذا يخاف الطفل الذي يرى أغصان شجرة تعصف بها الريح وهي تحتكّ بالنافذة ويحسبها أنّها عفريتٌ قادمٌ ليُلحِق به الأذى، فيما يخُصُّ ذلك، من أين تنبُعُ جميع مفاهيمنا الطفوليّة عن العفريت أو الوحش القابع تحت السرير؟

يعتقدُ معظمُ علماء النفس أنَّ فكرةَ الوحش تحت السرير ما هي إلا بقايا ورثناها من حياتنا الأولى حين كنّا ما نزال في مرحلة الأوسترالوبيتيكوس، كنّا نقضي الليالي على الأشجار حين كانتْ الوحوشُ والحيواناتُ المفترسة تكمنُ لنا في الأسفل، لذلك فإنّ خوفنا هذا ما هو إلا

استعادة لحذرنا القديم من تلك الوحوش.

البشرُ كائناتٌ متحيّزةٌ جداً لتفسير الظواهر والأحداث الغامضة على أنّها أمور يسبّبها وكيل أو عميل ما عن سابق تصميم وإصرار، وغالباً ما يكون ذلك العميل شبيهاً بالإنسان؛ هذه القدرةُ الإدراكيّةُ لإضفاءِ نوعٍ من العَمالة أو الوكالة على المَشاهد والأصوات المجرّدة ربّما ساعَدَتْ أسلافنا القدماء على النجاة والبقاء والاستمرار، ممّا سمحَ لهم برصد واكتشاف أعدائهم وتفاديهم، لقد أبقَتهُم يقظين ومستعدّين لكافّة الأخطار المحتملة، فمنَ الأفضل لكَ أن تَهجُمَ على ظِلّ مشبوه، على أن تتهاوَنَ في الأمر ليتبيّن لاحقاً أنّه لصٌّ سارق أو حيوان مفترس.

أداةُ كشفِ العَمالَة النشطة

هذه القدرةُ دائماً ما تعملُ بسرعة (مفرطة ونشطة) كما أنّها تُوَظّف بسهولة (مفرطة الحساسيَّة)، وقد جَرَتْ تسميتها بأداة كشف العمالَة مفرطة النشاط *Hyperactive Agency Detection Device*؛ هذه الأداة تساهم كثيراً في الاعتقاد الدينيّ لأنّها تسمح - بل تفضّل- بتدخّل كائنات عميلة غير مرئيّة، وغالباً ما يكون هؤلاء العملاء من البشر أو أشباه البشر، ما أن يقيم العقل هذه الصلة أو الرابطة، تغدو القفزة سهلة جداً للإيمان بالأرواح أو الأنفُس، أو بروح مُطلَقَة القوّة وأزليَّة.

كانتْ هذه المَلَكَةُ تشكّل سِمَة تكيفيَّة، لذلك من الطبيعيّ بالنسبة إلينا افتراض وجود كائنات غير مرئيَّة والاعتقاد أنّها يمكن أن تؤثّر على حياتنا، ومن الطبيعيّ أيضاً أن نفترضَ أنَّ كائناً كهذا، إذا طُلِبَ منه ذلك، يمكن أن يؤثّر أو يغيّر ما قد يحدث لنا، كما أنَّ طلبَ أيّ شيء من هذا الكائن سيتحوّل إلى صلاة.

وبمساعدة أدوات الكَشف المتطوّرة عن الوجوه والتعرّف إليها، وغيرها من المَلَكَات العقليَّة الإدراكيَّة الحسّاسة في التعرّف إلى الأشكال الإنسانيَّة، يمكن للعقل البشريّ رؤية الصور الشبيهة بالإنسان في أيّ مكان تقريباً؛ وجه إنسان على سطح القمر، أشجار التفّاح المشاكسة والمشاغبة في فيلم «ساحرة أوز»، وجه يسوع في شريحة بطاطا، ووجوه ضاحكة في

علامات الترقيم.

يرى البشر «عين الله» في صورة ملوّنة ومحسّنة رقمياً لمجرّة حلزونيّة مأخوذة بمقراب هابل، والصورة موجودة على غلاف الكتاب.

ظهورٌ آخر يحدث حين نضفي سِمَة العَمالَة أو الوكالة على أشياء معروفة وخالية تماماً من أيّ وكالة، كالعواصف أو الرياح العاتية، قد نقول: ((السماء تبدو غاضبةً اليوم))، أو ((الرياح عنيفة لا تَرحَم))، وكان الإغريق القدماء قد مَضَوا بالأمر لأبعَدَ من ذلك: فزيوس يضرب الصواعق والرعود، وبوسيدون يسبّب الأعاصير والأنواء في البحار، أمّا السيرينات فَهُنَّ المسؤولات عن حوادث تحطّم السفن والقوارب.

والآن، قد تتساءل -انتظر لحظة- كيف يمكن لَمَلَكات مثل «الإدراك المنفصل» و«أداة الكشف عن العَمالة المفرطة النشاط» أن تقود إلى معتقدات ماورائيّة، كيف نمضي إلى ماوراء المحادثات العقليّة مع الأجداد والأسلاف ونفتقر إلى ظلال المعتقدات الماورائيّة؟

نحن ننسب مُسبقاً صفة الوكالة والعَمالَة إلى كلّ شيء طبيعيّ وعادي، ثمّ نَرغَب بطريقة تلقائيّة قبول اللامرئيّ، بل الخوف منه.

بصفتنا كائنات اجتماعيّة مزوّدة بهذه السّمات التكيفيّة، بتنا الآن مجهّزين للإيمان بشخصيّة قدسيّة يمكننا الارتباط بها، بإمكاننا إضفاء نوع العَمالَة عليه، وتحويل بعض أو أغلب مشاعرنا الطفوليّة التي كوّنّاها خلال مراحل مبكّرة من طفولتنا باتجاهه، وكنتيجة لذلك يمكننا الإيمان والاعتقاد أنّ هذا الكائنَ يرغب في التفاعل معنا، لكنّ هذا الكائن يبقى خفياً وغيرَ مرئيّ وخياليّاً إلى حَدّ بعيد، بالإضافة إلى العديد من القطع والأجزاء المفقودة، كيف حَدَثَ أن تحوّلَ هذا الكائنُ غير المرئيّ إلى إله؟

التفكيرُ الحَدسيّ والعَوالِمِ المفتقرة للحَد الأدنى من العقلانيّة

نحن نميل لملء الفراغات، وهذا هو التفكير الحَدسيّ/ الاستنتاجيّ؛ إنَّ عمليّة ملء

الفراغات من دون التفكير بذلك، والعمل حسب بعض الافتراضات الرئيسة الأوليَّة وغير المُعلَنَة، هي أساس العَوالِم المفتقرة للحَدّ الأدنى من العقلانيَّة.

انظروا إلى الصورة التي في الأسفل، لا توجد أيّ خطوط في الصورة، لكنّكم ترون مربّعاً، لقد استدلّيتم إلى شكل المربّع من باقي العناصر الموجودة في الصورة، ملأتُم الفراغات، حسب التعبير في بداية الفقرة، إذا كنتم تتعاملون بالرسائل النصيَّة على أجهزة هواتفكم النقّالة، فأنتم تتعاملون بالتفكير الحدسيّ/ الاستدلاليّ طوال اليوم.

إنَّ عمليَّة ملء الفراغات، بالإضافة إلى عدّة سِمات تكيفيَّة أخرى، تساعدنا على خلق صورة كاملة عن صورة ناقصة، وإذا كان هناك عنصر أو عنصران مختلفان بعض الشيء، أو غير متطابقين بالكامل، فمازال بإمكاننا رؤية الصور وتقبّلها، فهي مازالت حدسيَّة وبدهيَّة وقابلة للاستدلال في حدّها الأدنى، وهذا هو أساس العَوالِمَ المفتقرة للحَدّ الأدنى من العقلانيَّة، وهي أفضل تسوية بين «المثير للاهتمام» و«المُتوَقّع»، إحدى الميّزات الغريبة للعقل البشريّ هي أنّ هذه العَوالِم المفتقرة للحَدّ الأدنى من العقلانيَّة مثيرةٌ للانتباه ويصعُب نسيانها.

إذا أخبَرَكَ أحدهم أنَّ شجرةَ البلّوط الضخمة في الحديقة المجاورة لمنزلك هي التي ستتكفّل بدفع ضرائبك، وغسل ثيابك، وإصلاح سيارتك، وستخبرك عن مستقبل أسهُمِكَ في البورصة، فَلَن تُكَلّفَ نفسكَ عَناءَ تجربة صدق هذا الكلام، لماذا؟ لأنّ هناك الكثير من الانتهاكات والمخالفات لجوهر «الشجرة» وصفاتها.

والحال، أنّك إذا سَمِعتَ أنَّ الشجرةَ ستسمع صلاتك ودعاءك أثناء ليلة اكتمال القمر،

فربّما ستؤمن بذلك وتعتقد بصحّته، فذلك سيكون وصفاً يَسهُلُ تذكّره، لماذا؟ لأنّ ذلك بعيدٌ تماماً عن الواقع، مع أنّ بعضَ الخصائص والقدرات العقليَّة البشريَّة -مثل القدرة على الإصغاء والاستماع وفهم الحديث البشريّ والرّدّ- قد نُسِبَت إلى الشجرة، إلا أنّها مازالت شجرة، وسِمَتُها الأساسيَّة أنّها مجرَّدُ شجرة، مزروعة في الحديقة وتمتدّ بجذورها في أعماق التربة، كما أنّها تمثّل كلّ ما نفهمه ونستوعبه عن مفهوم الشجرة وكلّ ما نتوقّعه منها، لكنّنا نجد أنَّ إضافةَ سِمَة سحريَّة هو أمرٌ مثيرٌ وعجيب.

خُذْ مثلاً قصص الجنّيات الخرافيَّة التي سمعتها حين كنتَ صغيراً: ملكة صغيرة تتنكّر بثياب ساحرة شريرة، لكنَّها سرعان ما تتحوّل إلى مَلِكَة، ساحرة شريرة تعيش في كوخ من الحلويات لتُغري الأطفال الصغار، فتاة صغيرة جميلة تعمل كخادمة لدى زوج أبيها لكنَّها تصبح كالأميرات في إحدى الليالي وتتزوّج أميراً وسيماً.

إنَّها مقدرتنا التكيفيَّة على بناء هذه العَوالِم المفتقرة للحَدّ الأدنى من العقلانيَّة وربطها، تلك العَوالِمِ التي تقبع في قلب نزوعنا وميلنا لتوليد قبول الأفكار الدينيَّة ورفض عدم الإيمان، كما أنَّ القصصَ الخياليَّة قريبة من الواقع بالنسبة إلى الأطفال ليصدّقوا، كذلك البنية الأساسيَّة لجميع الأديان تحتوي خاصيّات وسِمات ماديّة وبيولوجيّة، أو سيكولوجيَّة مختلفة بعض الشيء عن الموضوع الأساسيّ والجوهريّ الذي يبقى على حالِهِ رغم كلّ شيء.

مع سِمَة العَوالِمِ المفتقرة للحَدّ الأدنى من العقلانيَّة، يبقى الماورائيّ متصلاً دوماً بالعوالم العادية اليوميَّة، هذه الناحية لا تجعلها راسخة وثابتة فحسب، بل أهمّ من ذلك، تسمح لها بتلطيف وتليين وطأة مشاكل الإنسان الوجوديَّة غير المقبولة التي لا يمكن التعامل معها بطريقة عقلانيَّة، كإشكاليَّة الموت على سبيل المثال.

كان المصريون القدماء يعبدون الإله الذي يتّخذ لنفسه شكل القطة باستيت، لم يكنْ ذلك كثيراً للانتقال من الحيوانات الأليفة اللطيفة التي تغفو تحت أشعّة الشمس نهاراً وتطهّر بكفاءة وفعاليّة مخازن الحبوب من القوارض ليلاً، إلى آلهة تسافر عبر السماء برفقة إله الشمس رَع الرئيس، الثعبان أباب، في الأصل بقيت باستيت الهرّة التي تقضي على القوارض الناقلة

للأمراض المُعدية والثعابين والأفاعي السامّة.

قد تكون نقطة التحوّل أكثر استدلاليَّة وحدسيَّة، لكنّ الباقي متجذّرٌ في الواقع، مريم العذراء أنجَبَت يسوع في حين أنّها بقيَت عذراء، أمّا جميع العناصر الأخرى من الأنوثة وشباب مريم وأمومتها، بقيت على حالها.

الإلهُ اليهوديُّ المسيحيُّ موجودٌ في كلّ مكان بشكلٍ ماديّ، فهو يعرف جميع أفكاري، كما أنّه يعرف أنّني إذا أسَأتُ التصرّف أو أحسنتُهُ، بأنّي إذا كنتُ شقياً سيئاً أم جيداً وصالحاً في عقلي، لكن أيّ شيء آخر يتعلّق بالله فمازال إنسانيّاً، وإلا فإنَّه يظلّ مجرّد رجلٍ عادي، وكلّ ما تعرفه عنه يبقى على حاله، قد يكون الله غيوراً، ومنتقماً، وغضوباً، وحاقداً، كأيّ شخصٍ آخر عاديّ في أحسن الأحوال.

نحن نميل لملء الفراغات، لكنّنا نفشَل في ملاحظة ذلك، ناهيك من التفكير في ذلك.

الأديان دائماً ما تنسب صِفات ومَلَكات إنسانيَّة دنيويَّة بسيطة إلى الآلهة، يؤمن المسيحيون أنّ يسوعَ كان رجلاً وإلهاً، جميع الصفات البشريَّة العاديَّة موجودة، ونحن مرتبطون بالله حسب تلك الأبعاد، ونحن لا ندرك ذلك حتى نفكّر فعليّاً حول ذلك ونلتقط هذه التناقضات كالحاجة إلى الصلاة، وإلى قارئ للأفكار [الله].

كان يُفترَض أنَّ الله يشعر، ويفهم، ويفعل كما يفعل البشر العاديون، ويتصرّف كما يتصرّف أفضلنا وأسوأنا؛ هذه الافتراضات الأساسيَّة حول الآلهة موجودة دوماً، مَبنيّة بعضها على بعضٍ كأحجار الطوب في جدار.

لماذا يجب أن يصلّي الناس، إذا كانتْ آلهتنا على اختلاف أنواعها تعرف ماذا يدور في خلدنا وتقرأ أفكارنا فلماذا نحتاج للتحدّث إليها؟

الإنجيل يجيب على هذا السؤال: الله لا يسمعنا إلا إذا صلّينا له، ومن هذه النقطة نعود إلى مسألة الدين المنظّم، فهل نمارس الخداع الذّاتيّ مع أنفسنا؟

خداعُ الذَّات

إذا مارسنا خداع الذَّات مع أنفسنا، فهذا يعني أنّنا نستطيع خداع الآخرين بسهولة، يعتقد الساسة الطموحون أنّهم يتسابقون من أجل منصبٍ معيّن للترويج لهدف معيّن وخدمة قضيّة معيّنة، في الحقيقة، هم يمكنهم إخفاء طموحاتهم وجشعهم للسلطة والمنصب حتى عن أنفسهم.

يستعرضُ آرثر ميللر في رائعته «كلّهم أبنائي» عام 1947 -القائمة على أحداث حقيقيّة- قوّة الخداع الذَّاتيّ أو خداع النفس، في المسرحية هناك رجلٌ يدير مَصنعاً حربياً يشحَن قطعاً معطوبة ومعطّلة، وهو يعلم بذلك، الأمر الذي أدّى لوفاة واحد وعشرين طياراً، ولأكثر من ثلاث سنوات، خَدَعَ الآخرين كما خَدَعَ نفسه أيضاً، مُلقياً اللوم على شريكه المسجون، وحين ظَهَرَت الحقيقة، زعم الرجل أنّه تصرّف هكذا من أجل عائلته، وللحفاظ على المصنع قيد العَمَل، وقد صدّق ذلك فعلاً، تدور المسرحيَّة برمّتها حول مسألة كيف أنّ خداعه الذَّاتيّ قد انجَلَى واضطرّ لمواجهة الحقيقة المُرّة.

هذه المقدرة الإنسانيَّة على ممارسة الخداع الذَّاتيّ مهمّة جداً للاعتقاد الدينيّ، إذا كان بمقدور العديد من المؤمنين رؤية عقولهم وما يجري بداخلها بشكلٍ أوضح، فإنَّهم سيرون أنَّ الخداعَ الذَّاتيّ يلعب دوراً في قبولهم للإيمان الدينيّ.

ربَّما ليس هنا سوى ملحدين في حجر الثعلب، فإذا آمَنَ المؤمنون فعلاً بإلهٍ حامٍ وقدير، فلماذا يغوصون في جحرٍ لحماية أنفسهم من المخاطر والتهديدات والرصاص الطائش خلال الحرب؟

لأنَّ هناك أجزاءً من أدمغتهم تعرف تمام المعرفة أنّهم إذا لم يحموا أنفسهم جيداً، فإنَّ الرصاصَ لن يُفَرّقَ بين أولئك الذين يملكون إيماناً عميقاً خالصاً وأولئك الذين لا يملكون ذرّة من الإيمان، قد يقولون أو يعتقدون أنَّهم يؤمنون، لكنَّ أفعالهم الفطريَّة والغريزيَّة تكشف كذبهم.

لماذا يشترك المؤمنون بالضمان الصحّيّ، والضمان المنزليّ؟

أغلبُ الناسِ يعيشون حياتهم كأنَّ الله غير موجود، نحن نتوقّف عند الإشارات الحمراء، ونضع أطفالنا في مقاعد السيارة الخلفيَّة ونربط حولهم أحزمة الأمان، كما أنّنا نتصرّف بمسؤوليَّة لحماية أمننا وأمن مَن نحبّ.

خُذْ على سبيل المثال الطوابع والمُلصَقات التي تحمل الجملة التالية: ((انتباه، في حالة حدوث الدينونة، فإنّ هذه السيارة ستغدو من دون سائق))، حتى في هذه الحالة نرى أنَّ السائقَ يحذّر السائقين الآخرين، فإذا كان الإنسانُ متديّناً، فإنّه مُلحِد فيما يتعلّق بالآلهة الأخرى للآخرين، وآلهة الماضي، كما أنّه سيعيش كمُلحِد فيما يتعلّق بإلهه المعبود.

نحن نتوقّع أن يعيشَ الآخرون كملحدين أيضاً، نحن نريد منهم أن يقفوا عند الإشارات الحمراء وألا يفترضوا أنّهم يقودون سياراتهم في ظلّ الرعاية الإلهيَّة الكاملة، نحن في الغرب بِتنا على ألفة بالناس المتدينين الذين لا يؤمنون فعلاً بما يزعمون أنّهم يؤمنون به، لدرجة أنّنا قد نُفاجأ -كأحداث الحادي عشر من أيلول- حين نقابل أشخاصاً يؤمنون بدينهم بشكلٍ كامل، ويلتزمون بتعاليمه ويطبّقونها بطريقة حرفيَّة وإجراميَّة أحياناً.

المبالغةُ بالتصميم

على غرار الزوج الذي يرى زوجته مع رجلٍ آخر ويعتقد أنّها تلاطفه، جميعنا لدينا عقولٌ متحيّزة للغاية إلى المبالغة بالتصميم، وخاصةً التصميم الإنسانيّ أو حسّ الغاية، طبعاً، نحن بالكاد نُدرك الأمر، ويظهر ذلك حين نقول: ((لقد أمطرت السماء اليوم لأنّني لم أجلبْ معي مظلّتي))، وحتى الملحدين قد يزعمون أنّ حَدَثاً معيناً قد وقَع في حياتهم «لسببٍ ما أو لغاية»؛ هذا التحيّز لرؤية المقصد أو الغاية والتصميم حيث لا وجود لهما يبدو أكثر وضوحاً لدى الأطفال الصغار، فإنْ سألتَ طفلاً ما عن سبب وجود البحيرات وما هي الغاية منها ستراه يقول لك إنّها موجودةٌ من أجل أن تسبحَ فيها الأسماك، لماذا الطيور موجودة، وما هي

غايتها؟ لكي تغنّي.

لماذا الصخور موجودة؟ لكي تحكّ الحيوانات ظهورها بها.، وأنا متأكّدٌ أنّ هناك ملايين الآباء الذين وصلوا إلى مرحلة كادوا أن يفقدوا فيها صوابهم حين سألهم أبناؤهم للمرّة الألف «لماذا».

يُوصَفُ الأطفال عادةً بأنّهم «مؤمنون بالفطرة»؛ أي بالحدس، فهم يُظهِرون ما يسمّى «حسّ الغائيّة المشوّشة»، وهي إطار أساسيّ لفهم العالَم في سياق غائيّ، وهذا يساهم بما نعرفه اليوم عن معتقدات الأطفال، فالأطفال الصغار سيتبنّون بشكلٍ تلقائيّ فكرة الله ويخلقون لأنفسهم عالَماً خالياً من أيّ تدخّل من الراشدين والكبار، نحن جميعنا نولَد تكوينيين في الأصل؛ أي نؤمن بفكرة الخَلق، أمّا عدم الإيمان أو العقلانيّة فإنّها تتطلّب جهداً، حتى البالغين الكبار بعيدون كلّ البعد عن مثال العقلانيّة، نحن نحتاج لرؤية التصميم والغاية في كلّ مكان أيضاً.

في الواقع، إنَّ الحاجةَ لرؤية التصميم أو الغاية متجذّرة في صلب العقيدة الدينيّة، فعلى سبيل المثال: يعرّف هذا القاموس [Dictionary.com] الدين بأنّه ((مجموعة من الأفكار والمعتقدات المتعلّقة بطبيعة الكون وسببه وغايته، وخاصةً حين يُعتبَر بوصفه مخلوقاً من قِبَل وكيل أو عميل ما ورائيّ خارق للطبيعة، ويتضمّن عادةً طقوساً وشعائر من نوعٍ معيّن)).

يؤمنُ دارسو الإنجيل أنَّ الحيواناتِ موجودةٌ لتأدية مهمّة واحدة تتمثّل في خدمة الإنسان، تلك الحيوانات غير الإنسانيّة قد لَعِبَتْ دوراً أساسيّاً وشاركت في عمليّة تطوّر جنسنا ونشأة النظام البيئيّ في كوكبنا، وهذا الأمر لا يأخذه دارسو الإنجيل في حسبانهم.

مشكلتنا مع الغاية والهدف تظهر أكثر ما تظهر في مقاومتنا لتقبّل مفهوم الانتقاء الطبيعيّ وصعوبة فهم هذه العمليّة؛ لأنّنا نتوقّع أنَّ «كلّ شيء يحدث لسببٍ معيّن»، ومن الصعب بالنسبة إلينا تكييف عقولنا لتقبّل حقيقة نشأة الحياة وتطوّرها، من الصعب جداً لنا أن نتقبّلَ مفهوم التطفّر العشوائيّ والتدريجيّ للجينات والبقاء غير العشوائيّ للأجسام التي تحتويها.

إنّ تحيّزنا وقابليتنا لرؤية الغاية والهدف وعجزنا الأساسيّ عن فهم الآليّات العمياء وغير الغائيّة لتطوّر الحياة يمكن أن يجعلَ من الاعتقاد الدينيّ السبيل الأنجَع لهذه المقاومة.

نحن نمتلك رغبةً داخليّةً متجذّرةً لرؤية النظام والترتيب في حياتنا، والدين يُشبع رغبتنا هذه.

الفصلُ السادسُ (ملاحظاتٌ مُكَمّلَة)

إنَّ مصطلحَ «أداة كشف العَمالَة النشطة» مستوحى من كتاب جاستن باريت: «لماذا يؤمنُ أحدٌ بالله؟» Justin Barrett's, *Why Would Anyone Believe in God?* (Lanham, MD: AltaMira Press, 2004).

إنَّه كتابٌ صغيرُ الحجم، ولكنَّه رائع، يصف فيه بوضوح العديد من الآليَّات المعرفيَّة التي يستغلّها الدين ويوظّفها لصالحه، لكنّه يشوبه اعتراف غير متوقّع وغير مُسوّغ، ولا يمكن تفسيره بإيمانه بالدين المسيحيّ في إحدى فقراته الأخيرة.

إنَّ أهميَّةَ ضعفنا في تجسيد الدين وأنسَنَتَهُ هي أساس كتاب ستيوارت جوثري: «وجوه في الغيوم: نظريَّة جديدة في الدين» Stuart Guthrie's, *Faces in the Cloud: A New Theory of Religion* (New York: Oxford University Press, 1993)، كما أنّ ريتشارد كوس، أستاذ علم النفس في جامعة كاليفورنيا بديفيس، قدّم لي فكرةً ودليلاً على استمرار وجود آليَّات داخل أذهاننا وَرِثناها عن أسلافنا الأوستر الوبيتين.

إنَّ رغبتنا في بناء وإنشاء عوالِمٍ حدسيَّة تفتقر إلى الحَدّ الأدنى من المعقوليَّة هو حجر الأساس لعلم الأعصاب المعرفيّ للدين، وهذه الفكرة مشروحة بشكلٍ مفَصّلٍ ووافٍ في كتاب باسكال بوير: «الدّين مُفَسّراً: الأصل التطوّريّ للمعتقدات الدينيَّة» Pascal Boyer's, *Religion Explained: The Evolutionary Origin of Religious Belief* (New York: Basic Books, 2001). وكتاب سكوت أتران:

«نؤمن بالآلهة: المنظور التطوّريّ للدين» *:Scott Atran's, In Gods We Trust*
The Evolutionary Landscape of Religion (New York: Oxford
.University Press 2002)

لماذا جميعنا نعرف قصّة ذات الرداء الأحمر أو ليلى والذئب؟

إنّها تنطوي على فكرتين غير منطقيتين إطلاقاً أو تفتقران إلى أدنى حَدٍّ منَ المعقوليَّة: الذئبُ الناطقُ ثمّ الفتاةُ الصغيرةُ والجدّةُ اللتان تخرجان من بطن الذئب، وهما على قيد الحياة.

نحن نتذكّر الأفكار غير المعقولة والمفتقرة لأدنى حَدّ من المعقوليَّة بسهولة أكثر من الأفكار البدهيَّة أو الغريبة، وللحصول على دليل تجريبيّ لذلك، انظر: مقال «الذاكرة والغموض: الانتقاء الثقافيّ للأفكار المفتقرة لأدنى حَدّ من المعقوليَّة» *:Memory and Mystery*»
The Cultural Selection of Minimally Counterintuitive Narratives»
by Ara Norenzayan, Scott Atran, Jason Faulkner and Mark
.Schaller in Cognitive Science 30 (2006) :531-553

يوضّحُ هذا المقالُ كيف أنَّ العناصرَ والأفكار غير البدهيَّة أو غير المعقولة التي تفتقر إلى أدنى حَدّ من المعقوليَّة تعتبر أساساً للحكايا والقصص الشعبيَّة الناجحة والروايات الدينيَّة، وتظلّ العناصر الخارقة للطبيعة مرتبطة بالحياة اليوميَّة، ويمكن أن تخفّفَ من المشاكل الإنسانيَّة الوجوديَّة والأساسيَّة التي يَصعُبُ التعامل معها بطريقة عقلانيَّة، كالموت مثلاً، ويمكن تذكّرها بسهولة وتكرارها ونقلها إلى الأجيال التالية.

الكتابُ الأسهل والذي يمكن الحصول عليه بسهولة شديدة وهضمه جيداً والذي يلخّص ما توصّل إليه علم النفس المعرفيّ للدين بتفاصيل أكثر من كتابنا هذا هو كتاب تود تريملين: «عقول وآلهة: الأسس المعرفيَّة للدين» Todd Tremlin's, *Minds and*
Gods: The Cognitive Foundations of Religion (New York: Oxford
.University Press, 2006)

في واحدةٍ من أهمّ المقدّمات لأيّ كتاب، قدّم روبرت يريفرس مفهوم خداع الذّات في نسخته الأصليَّة لعام 1976 من كتاب ريتشارد دوكينز الرائع «الجينة الأنانيَّة»، ويمكن العثور على المقدّمة في طبعة الذكرى الثانويَّة الثلاثيَّة للكتاب، قُدّمَتْ فكرةُ المؤمنين الفطريين والغائيَّة المشوّشة من قبل ديبورا كليمان في كتابها: «هل الأطفالُ مؤمنون بالفطرة؟ تأمّلات في حسّ الغاية والتصميم في الطبيعة»، مجلّة العلوم النفسيَّة، عدد 51، (2004) Deborah Kelemen, «*Are Children Intuitive Theists? Reasoning about Purpose and Design in Nature,*» Psychological Sciences 295-301:(2004) 15. وقد أشار روبرت كورنويل إلى امتداد لفكرة وجود ملحدين في الخنادق؛ إذ يشترك المؤمنون في الضمان الصحيّ، ويستخدمون مقاعد السيارات الخلفيَّة لأطفالهم ويربطون حولهم أحزمة الأمان، ويتوقّعون أن يتصرّفَ الجميع من حولهم كما لو أنّه لا توجد عناية إلهيَّة في هذه الحياة، لابدّ أنّك في الجيش، أو تعرف أحداً ما في الجيش، ضَعْ في اعتبارك الرابطة العسكريَّة للملحدين والمفكّرين الأحرار: www.maaf.info

كما تمّت دراسة الصعوبة التي نواجهها في فهم نظريَّة التطوّر في محاضرة لدانييل دينيت «الطبيعة البشريَّة والمعتقدات» Daniel Dennett's lecture «*Human Nature and Belief,*» Darwin Festival, Cambridge University, July 8, 2009، ويمكن الوصول إليها بسهولة من خلال محرّك البحث غوغل، فهو يستخدم في محاضرته تشبيه أجهزة الحاسوب، التي يمكنها أداء عمليَّات حسابيَّة بالغة التعقيد دون أيّ فهم مُسبَق للرياضيات، نحن لسنا معتادين على الأداء بكفاءة من دون فهم، ويمنحنا الانتقاء الطبيعيّ تصاميم جميلة بدون الحاجة لمُصَمّم ماهر، كما أنّها تقدّم لنا أسباباً بدون مُسَبّب، إنَّ القدرةَ على الفهم هي نتيجةٌ حديثةٌ للعمليَّةِ التطوريَّة.

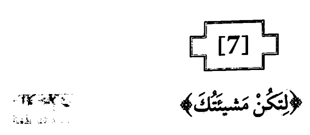
يبدو أنَّ صورةَ «عين الله *Eye of God*» لها كيانٌ قائمٌ بذاته كشخصيَّة دينيَّة، ابتداءً من العام 2003 لتُعاوِدَ الظهور من جديدٍ بشكلٍ متقطّع بعد ذلك، انتشرتْ الصورةُ بطريقةٍ «فيروسيَّة» عبر سلاسل من رسائل البريد الإلكترونيّ، كما هو مذكورٌ في مواقع الإنترنت

المَعنيّة بدَحض الأكاذيب والخدع العلميَّة كموقع Snopes.com.

إحدى الرسائل الإلكترونيَّة الواردة إلى الموقع تقول: ((هذه صورةٌ نادرةٌ جداً، التقطتها وكالة ناسا، تسمّى عين الله، هذا النوع من الأحداث يحدث كلّ ثلاثة آلاف عام، وقد نتج عن هذه الصورة العديد من المعجزات عند الكثير من الناس، تمنّى أمنية... لقد نَظَرتَ لتوّكَ في عين الله، ستلاحظ التغييرات في حياتك في غضون يومٍ واحد حتماً، سواء كنتَ تصدّق ذلك أو لا تصدّق، لا تحتفظ بهذه الرسالة لنفسك، بل مَرّرها إلى ما لا يقلّ عن سبعة أشخاص)).

وفقاً لموقع Snopes.com : ((إنَّ الصورةَ هي صورة حقيقيَّة لسديم اللولب، على الرَّغم من أنّها من الناحية الفنيَّة ليستْ صورةً واحدةً بل صوراً مركّبة تمّ التقاطها بواسطة تلسكوب هابل المداريّ والتلسكوب الأرضيّ التابع لوكالة ناسا))، يتابعُ الموقع ((لا يَظهَر سديم اللولب بشكل طبيعيّ حسب الألوان المعروضة في الصورة... إنَّ التلوينَ الخفيفَ للصورة من صنع الإنسان، وتسمية الصورة بـــــ«عين الله» صاغها أحد المعجبين بها، وليست تسمية مُعتَمَدَة من وكالة ناسا، وهذا السديم موجود ومرئيّ طوال الوقت، وليس «مجرّد حادثة تحدث كلّ ثلاثة آلاف عام»)).

إنَّ التعيينَ العفويَّ لصورة مرَكّبة ومُلَوّنة اصطناعيَّاً لسديم ما على أنّه «عين الله» يوضّح بقوّة قدرة البشريَّة وحاجتها إلى خلق الآلهة.



[7]

﴿لِتكُنْ مَشيئَتُكَ﴾

طاعةُ اللهِ والخضوعُ لشريعتِهِ

((هذه السماتُ الاجتماعيّةُ... كانتْ بلا شَك السمات التي اكتسبها أسلافنا البشريون بطريقة مماثلة؛ أي عن طريق عمليَّة الانتقاء الطبيعيّ، المدعومة بالعادة المتأصّلة والمتجذّرة)) [تشارلز داروين].

احترامُ السلطة

نحن نَنزَعُ بطبيعتنا إلى الخضوع للسلطة واحترامها، وقد كُشِفَ عن ذلك من خلال مجموعة من التجارب الشهيرة التي قام بها ستانلي ميلغرِم، العالِمِ النفسيّ من جامعة ييل، ابتداءً من عام 1961، وقد أشار ميلغرِم في أبحاثه أنّ ثُلُثي معدّل الأشخاص العاديين والطبيعيين سيستمرون في صعق متعلّمٍ «عاجز وغير كفؤ»، ورغماً عنهم، لو أنّهم أُمِروا بذلك من قِبَل شخصيَّة سلطويَّة، إذا لم تَكُنْ قد سَمِعتَ بتجربة ميلغرِم من قبل، فابحثْ عنها عبر الإنترنت، ستُفاجأ بشدّة من تجاربه الأصيلة وتجارب هؤلاء الذين كرّروها لتتأكّد لهم نتائجها أكثر.

إنَّ الشعورَ بالخضوع والتواضع والمَهانة هي جزء من تركيبتنا النفسيَّة، مُصَمَّمَة لتحفيز سلوكنا وردود أفعالنا تجاه أولئك الذين يتبوّأون مراكز سلطويَّة قياديَّة أعلى ضمن هرم التراتبيَّة الاجتماعيَّة؛ تلك المشاعر أهداف سهلة بالنسبة إلى الأديان: احتَرِم أباكَ وأمّك، أطِعْ أوامر الله وانهَ عمّا ينهاكَ عنه، ولا تعصي أوامره في أيّ شيء، وأطيعوا أولي الأمر منكم.

الأخلاقُ

الجزءُ الثاني من التعريف الأوَّل للدين الذي قدّمه لنا القاموس السابق الذكر هو:

((... وغالباً ما يتضمّن منظومة أخلاقيَّة تحكُم وتُنَظِّم سَيرَ العلاقات الإنسانيَّة)).

هناك من يقول إنّه لولا الدين كان سيتحوّل الإنسان إلى كائن لاأخلاقيّ ودنيء، وهم مخطئون بكلّ بساطة.

لقد وُلِدنا كحيوانات أخلاقيَّة، نحن لسنا بحاجة إلى الدين لكي يَحولَ دون تحوّلنا إلى وحوش لاأخلاقيَّة، هذا ما تسعى بعض الديانات إلى غرسه في عقولنا وتلقيننا إيّاه، لو كان أسلافنا لا يملكون أيّة معرفة بالصواب والخطأ، وبغضّ النظر عن الطريقة التي نظرت فيها كلّ مجموعة إلى هذين المفهومين، لَمَا استطاعوا النجاة لفترة طويلة وتشكيل جماعات مجتمعيَّة أكبر، فبالإضافة إلى وجود العصبونات المرآتيَّة، سنناقش في الفصل التاسع دلائل أخرى تفنّد المفهوم القائل إنَّ الأخلاقَ مُكتَسَبَةٌ فقط ويتمّ تحصيلها وتعلّمها، وليست فطريَّة، لقد أدّت بنا الغطرسةُ الإنسانيَّةُ إلى الاعتقاد بأنّنا الكائنات الأخلاقيَّة الوحيدة، لكن هناك حيوانات أخرى تُظهِر سلوك الشفقة والتعاطف، والحزن، والراحة، والتعاون، والتسامح، والثقة، والمقايضة، والحسّ بالعدالة، والانتقام، والثأر، والغيظ، والغِلّ، وأكثر من ذلك بكثير، وحين تمّ التعرّف إلى تلك السمات، سرعان ما تمّ تحديدها بوصفها أحجار البناء الأساسيَّة للأخلاق الإنسانيَّة، ويجب النظر إليها على أنّها جزء من المنظومات الأخلاقيَّة المتطوّرة التي تحتاجها أغلب أنماط السلوك الاجتماعيّ للنوع.

إنَّ تطوّرَ السلوك الأخلاقيّ قد ترافَقَ جنباً إلى جَنب مع تطوّر الميل نحو التجمّع، وإنَّ التركيبةَ الاجتماعيَّة تخلُقُ تركيبة أخلاقيَّة، ونحن نوعٌ فريدٌ من الكائنات الأخلاقيَّة بامتياز.

وَجَدَ الباحثُ وعالِمُ النفس الشهير بول بلوم هو وفريقه من جامعة ييل في بحثه الطليعيّ والرائد أنَّ الأطفالَ الذين لا تتجاوز أعمارهم ثلاث السنوات يمتلكون شعوراً داخليّاً فطريّاً بالصواب والخطأ، وبالظلم والإنصاف.

قامَ الفريقُ المذكور بعرض مشهد للأطفال حيث كانت في المشهد دمية تتسلّق الجبل، ومعها دمية أخرى، مرّةً تساعدها على الصعود، ومرّةً أخرى تعيقها، ولاحظوا أنَّ الأطفالَ أحبّوا الدمية المُساعِدَة وكرهوا الدمية المُعيقة، كانوا قادرين على إصدار حكم قِيَميّ اجتماعيّ، في إطار ردّات الفعل الأخلاقيَّة، وقد أشارَ الباحثُ إلى أنّه ((من المفيد أن يتعاونَ البشر فيما بينهم ويتعاضَدوا... وهذا يعني أنَّ القدرةَ على تقييم ميل الآخرين ونزوعهم نحو الخير والصَّلاح أو نحو الشَّرّ والأذى ما هي إلا سِمَة تكيفيَّة، وهذا هو السبب الذي يدفعنا للتأكيد على المفاهيم الأخلاقيَّة الأوَّليَّة على الأقلّ)).

المثالُ الذي قدّمته لكم في الفصل الخامس عن الطفل الصغير الذي يَلعب معك بالكرة قد اقتبسته من عمل ميكاييل توماسيللو، عالِم النفس التطوريّ في لايبزيغ بألمانيا، كان هو وزملاؤه قد أنتجوا حصيلة ضخمة -يمكن اعتبارها ثروة- من الأبحاث والدراسات التي تُثبتُ أنَّ الأطفالَ الصغارَ يمتلكون مَلَكَات داخليَّة كامنة، فهو يرى أنّنا نولَد ويولَدُ معنا الميل إلى الإيثار، ثمّ بعد ذلك نتعلّم استراتيجيَّات الأنا وتفضيل الذَّات [نتعلّم الأنانيَّة]، وتبيّن مجموعة توماسيللو أنَّ قدرةَ الأطفال على تقييم أيّ موقف والانخراط في سلوك تعاونيّ معيّن، مترافقة مع شعور واضح بحسّ العَدل والإنصاف؛ إنّ فيديو فيلكس فارنيكين الذي يصوّر مجموعةً من الأولاد الصغار وهُم يهرعون عن أمّهاتهم لمساعدة رجل طويل عالِق في مقصورة مغلقة يثبت لنا وجهة النظر هذه ويمنحنا نوعاً من السعادة الدافئة.

إنَّ منظوماتنا الأخلاقيَّة تشبه قواعدنا الغريزيَّة والفطريَّة، فجميعنا لدينا القدرة على تعلّم لغة ما، كما أنّنا نتعلّم لغة ثقافتنا، جميعنا نمتلك منظومات أخلاقيَّة، كما أنّنا نتعلّم

القيم الأخلاقيَّة من ثقافتنا، نحن نمتصّها ونتمثّلها، كما أنّ تلك القيم تَضفي تنوّعاً حيويّاً لاستجاباتنا وردودنا الأخلاقيَّة الحدسيَّة، والتلقائيَّة، والعاطفيَّة، نحن نعرف الفرق ما بين الصواب والخطأ، والحق والباطل، بدون الحاجة إلى الدين.

يبدو أنَّ مبادئنا الأخلاقيَّة عبارة عن منظومة ثنائيَّة تحتوي كُلاً من العمليَّات التلقائيَّة واللاشعوريَّة، والعمليَّات الشعوريَّة القائمة على أساس الحقائق التي تركّزت على مناطق معيّنة في الدماغ.

يبدو أنَّ العمليَّاتِ العاطفيَّة الأخلاقيَّة تكمن في القشرة الدماغيَّة الأماميَّة المَداريَّة، في القسم الأوسط من دماغنا؛ هذه المناطق الحسّاسة تراقب محيطنا بشكلٍ دائم، ومحيطنا الاجتماعيّ بشكلٍ خاص، ومكاننا الذي نشغله فيه، وحين تَطرأ تغييرات في ذلك المحيط، فإنّنا نستجيب لها بطريقة تلقائيَّة. إذا كانتْ التغيّراتُ إيجابيَّة، فإنَّنا نتفاعل معها، أمّا إذا كانت سلبيَّة وضارّة، فإنّنا نَتَفاداها، وهناك مثالٌ على ذلك: عمليَّة التقييم العاطفيّ.

هناك عدّة أمور تنشّط استجاباتنا العاطفيَّة: الأذى أو الغبن في المرتبة الأولى، فإذا شهدنا حدوث خَرق أو انتهاك لأحد هذين الأمرين، سنجد أنفسنا نستجيب بشكل تلقائيّ، جميع الناس يستجيبون لحالات وظروف معيّنة بطريقة تلقائيَّة، مع أنَّ الفروقات والاختلافات الثقافيَّة هي التي تحدّد شدّة وقوّة استجاباتنا وردّات أفعالنا.

مع أنّنا أكثر إطاعةً وخضوعاً للسلطة ممّا نتوقع، كما أثبتت تجارب ميلغرِم، إلا أنّنا نمتلك عواطف وأحاسيس أخلاقيَّة تساعدنا على تسيير علاقاتنا مع السلطة والمرجعيَّات، ممَّا يسمح لنا بتحديد الجماعات التي ننتمي إليها ونندرج تحتها ونَدين لها بالولاء، نحن نحكم على أفعال جماعتنا بأنّها صالحة وخيّرة، كما أنّنا نستميت بالدفاع عنها، ونتعرّف إلى الجماعات الخارجيَّة المخالفة والأفراد الغرباء عن جماعتنا، والذين يجب أن نقلقَ بشأنهم، ونقرّر بأنّهم غير جديرين بالثقة ولا يمكننا منحهم ثقتنا حتى يثبتوا لنا عكس ذلك. وقد أدّتْ الدياناتُ دور الآليَّة المُسبقة الصنع التي حدّدتْ لنا الجماعات الخارجيَّة المعادية التي تستحقّ الموت.

يبدو النقاءُ أو البَراءة جانباً آخر من مشاعرنا الأخلاقيَّة التلقائيَّة، ربّما نشأ هذا الجانب من مشاعر القَرَف والغَثَيان التي تتولّد عن اشمئزازنا من اللحم الفاسد والعَفَن، الأمر الذي يحمينا ويقينا من الأمراض، لكنّ ردّة الفعل هذه -القَرَف- يمكن أن تنتقلَ إلى مجال الحياة العامَّة والعلاقات الاجتماعيَّة.

لقد تحوّلَ القَرَفُ أو الغثيان إلى عاطفة معنويَّة قويَّة وبالغة التأثير، وذلك لتحسين وتطوير قدرتنا على النقد وإصدار الأحكام، وغالباً ما تُوَجّه نحو الأفراد الذين يُصَنّفون بأنّهم من خارج جماعتنا؛ إنّ مشاعرَ القرف والاشمئزاز تعزّز إحساسنا بالناس من حولنا، وبالأماكن، والأشياء الموجودة التي نصنّفها على أنّها مقدّسة، وشعورنا بالقلق وعدم الارتياح، بل بالانزعاج، حين يتمّ انتهاك الشعائر المقدّسة، أو تدنيس المقدّسات.

إنَّ استجاباتنا الأخلاقيَّة الشعوريَّة هي عمليّات تسويغ عقلانيَّة أو تسوية منطقيَّة تسمح لنا بتسويغ ردّات أفعالنا واستجاباتنا العاطفيَّة التلقائيَّة، ولفهم هذه العمليَّة بشكلٍ جيد، قارن بين ردّات الفعل الأخلاقيَّة والأحكام الجماليَّة، فحين ترى لوحة تأسركَ بجمالها، فتُعجَبُ بها بكلّ بساطة، إنّها تحرّك مشاعركَ بطريقةٍ ما، وحين يسألك أحدهم عن سبب ذلك، فأنتَ تذكر سبباً أو عدّة أسباب، لكنّها في الأصل ما هي إلا مسوغات قد تتعلّق أو لا تتعلّق إطلاقاً بردّة الفعل الغريزيَّة الإيجابيَّة من أيّ نوعٍ كانت.

نحن نمتلك ردود أفعال أخلاقيَّة مماثلة، لذلك يمكننا -كأيّ محامٍ ماهر- أن نقيمَ قضيَّة شعوريَّة واعية لتسويغها، ذلك «المحامي» هو جزء من دماغنا، وقد تركّز في القشرة المخّيّة، طَبَقة الدماغ الخارجيَّة، وهي التي ستقدّم أسباباً لأيّ ردّة فعل أخلاقيَّة وتكون أساس قضيتنا، يمكن لذلك الجزء من الدماغ في بعض الأحيان إبطال استجاباتنا العاطفيَّة وتجاهلها، وقد نجد شخصاً ما بريئاً لكنّنا نَمقته ونشمئزُّ منه «غريزيّاً»، إلّا أنّ أغلبَ عمليّاتنا العاطفيَّة الأخلاقيَّة لاشعوريَّة، بإمكان الدين جعل حياتنا أسهل من خلال تقديم أسباب شعوريَّة وواعية لمشاعر وعواطف وأحاسيس لا يبدو أنّها تنبثق من أيّ مكانٍ دون أيّ معالجة شعوريَّة وواعية.

مـن الممكـن جـداً أن يكـونَ الإنسـانُ لادينيّـاً وأخلاقيّـاً في الوقـت نفسـه، لكنَّـك إذا التَزمـتَ بتعاليـم الكتاب المقدّس وبشـكل حـرفيّ ودقيق، يصبـح بإمكانك بيـع ابنتكَ كأمَة [خـروج 21: 7].

وهناك كتاباتٌ وأعمالٌ دينيَّةٌ أخرى تتضمّن أوامر منحرفة مماثلة، والكتب المقدّسة القديمة تبدو مليئةً بالنصائح والتعاليم الأخلاقيَّة التي لا تبدو أخلاقيَّة على الإطلاق بالنسبة إلى الإنسان المعاصر، فكلّما خَفّ تعلّقكَ والتزامك بالكتاب المقدّس، وزاد اعتمادك على حدسكَ الأخلاقيّ الأساسيّ، اقتربتَ لأن تكونَ إنساناً أخلاقيّاً طبيعيّاً.

الأخلاقُ والمبادئ الأخلاقيَّة الأصيلة تعني قيامَكَ بفعل الصواب بصرف النظر عمّا قيل لنا أو تَمّ تلقيننا إيّاه، الأخلاق والمبادئ والأخلاقيَّة الدينيَّة تعني فعل ما تَمّ تلقيننا إيّاه والالتزام بتعاليم وأوامر الكتاب المقدّسة، إنَّ سلطةَ الدين وقوّته تمنحاننا أسباباً قويَّة للقيام بفعل ما أُمِرنا به أو تمّ تلقيننا إيّاه، الدين يسمح لنا أنَ نكون جزءاً من «الجماعة» التي ستنال مكافأة مُجزية أو قد يساعدنا على تجنّب العَذاب الأبديّ في الجحيم.

الناس الذين هَجَروا دينهم سيخبرونك أيضاً أنَّ حصولك على معتقد دينيّ أسهَل بكثير من عدم حصولك عليه، فالإيمان يتطلّب جهداً فكريّاً أقلّ بكثير.

سيكولوجيَّةُ القرابة

لقد وُلِدَ البشرُ وتطوّروا وهم يتمتّعون بآليّات عقليَّة متناسقة وأنيقة لإدراك صلات القَرابة والتعرّف إليها، ولتفضيل الأقارب على الغرباء، ويُقال في المَثَل الشائع: ((أنا وأخي ضدّ ابن عمّي، وأنا وأخي وابن عمّي ضدّ الغريب)).

إنَّ علاقاتِ القَرابة هذه ضروريَّة جداً ومهمّة، ليستْ من أجل بقائنا فحسب بل من أجل بقاء النسخ الأخرى من جيناتنا الكامنة داخل أقاربنا، لقد تطوّرنا لتفضيل أولئك الذين يحملون جيناتنا على مَن لا يحملونها، إنَّ الأديانَ تستثير وتستغلّ مشاعر القرابة، وكنيسة

الروم الكاثوليك خير مثال على ذلك، الكاهنات «أخوات» و«أمّهات»، والكَهَنة «آباء»، والقساوسة «أخوة»، والبابا «الأب المقدّس»، والدين نفسه يُشار إليه عادةً «بالكنيسة الأم».

إنَّ استغلالَ مشاعر القرابة وتوظيفها أمر ضروريّ في سبيل تجنيد الإرهابيين الانتحاريين اليوم وتدريبهم وتوظيفهم لخدمة الجماعة والله، لقد تمّ التلاعب بعلاقات القَرابة، والمجنّدون ذوو الكاريزما القياديَّة المؤثّرة يخلقون خلايا قائمة على أساس القرابة المزيّفة، أخوة مزيّفون مستاؤون من المعاملة السيئة التي يتلقّاها إخوانهم وأخواتهم بالدين على أيدي من لا يمتّون لهم بصلة القرابة هذه، وطلَب الشهادة هنا ليس فقط من أجل خيالات وأوهام جنسيَّة مع عدد من الحور العين في الجنّة، بل أيضاً من أجل الفرصة لمنح الأخوة المزيفين بطاقات دخول مجّانيَّة إلى الجنّة [شفاعة].

صدر في يوم 8 يونيو عام 2010 تقرير من وكالة الصحافة يستعرض وبقوّة مشاعر القَرابة التي يستخدمها الدين ويوظّفها: ((أحَد أفراد تنظيم القاعدة أطلَقَ النار على والده البيولوجيّ وأرداه قتيلاً أثناء نومه لأنّه رفض الاستقالة من عمله كمترجم عراقيّ للقوات الأمريكيَّة المعسكرة في العراق))، في هذه الحالة، إنَّ القوّةَ البالغةَ والهائلة لصلة القَرابة الدينيَّة المختلفة قد سبقت صلة القرابة الفعليَّة، لاغِيَةً مشاعر القَرابة الفرديَّة إضافةً إلى انتهاك إحدى حُرُمات الثقافة الكونيَّة التي تَنهى عَن قتل الأب، هذه الحالة تبيّن لنا مدى خطورة الدين وتأثيره السام.

كما أنّ أكبرَ كارثة إنسانيَّة حَلّتْ بأمريكا هي أحداث الحادي عشر من أيلول وكان سببها الدين، أمّا ثاني أكبر كارثة إنسانيَّة فهي حين لَقِيَ 918 شخصاً حتفهم في جونز تاون؛ 909 منهم ماتوا انتحاراً، كما قَتَلَ بعضهم أولادهم قبل أن يتناولوا عصيراً مُشبَعاً بالسيانيد، هذا المجتمع كان رجلٌ اسمه جيم جونز مؤسّسه، وهو زعيم قياديّ لطائفة دينيَّة قد أنشأها بنفسه أطلَقَ عليها اسم «مَعبد الشعب».

كيف ولماذا مَنَح هؤلاء الأشخاص ثقتهم لرجلٍ مجنون وقدّموا حياتهم من أجله؟

الالتزامُ الصادقُ والمُخلِصُ والمُكلِفُ

كيف تثقُ بشخصٍ وَعَدَكَ بشيء ما؟

إنّ ثقتكَ به ترتفع وتزداد إذا كان وعده مصحوباً بالتزام صادقٍ ومُخلِص من جانبك، لكنّه مُكلِفٌ أيضاً: دفعة مُسبقَة 1000 دولار مثلاً على الأقلّ، وخاتم يحمل ألماسة أو جوهرة ثمينة، وضرب الإنسان جسده بالسوط باسم الرّبّ، واجتثاث نفسك أو جماعتكَ أو عائلتك لإقامة مدينة جديدة في أمريكا الوسطى.

إنَّ الالتزامَ الصادق والمُخلِص والمُكلِف يُعتبَر جزءاً أساسيَّاً في علاقاتنا، والدين يوظّف هذا النمط من الالتزام بطريقة لطيفة، فهو يغرينا بالالتزام به والتضحية بأنفسنا وتقديم دمائنا وأرواحنا وجهدنا ودموعنا وثرواتنا وطاقاتنا وصلات قرابتنا الفعليَّة على مذبحه.

كيف لي أن أحكُمَ على التزامك بالدين وبي أنا كـأخ لك بالدين؟

أراقبُ أوّلاً تصرّفاتك ومساهمتك المخلصة والمُكلفة التي لا مِرَاء فيها بالطقوس والشعائر الدينيَّة؛ طقوس وشعائر عادةً ما تكون طويلة ومُتعِبَة ومُرهِقَة، ومُكلِفَة ماليَّاً وجسديَّاً.

الفصلُ السابعُ (ملاحظاتٌ مُكَمّلَة)

أيّ عمليَّة بحث سريعة على الإنترنت ستعرض أمام القارئ المهتم تفاصيل كاملة عن تجربة ستانلي ميلغرِم، بل سيعرض عليه محرّك البحث مقاطع فيديو للتجارب الحديثة التي تكرّرت فيها نتائج تجربة ميلغرِم نفسها.

حَدَثَتْ ثورةٌ في علم النفس وعلم الأعصاب المعرفيّ للأخلاق، وأحد أفضل المواضع للانطلاق في مسيرة التعرّف إلى هذا الموضِع يتمثّل في الصفحة الرئيسة لجوناثان هايدت وكتاباته العديدة عن الأخلاق، «الأخلاق: مراجعة شاملة لعلم النفس الأخلاقيّ» Jonathan Haidt's, «*Morality: A Comprehensive Review of Moral*

Psychology»، وهو عبارة عن فصل كُتِبَ خاصةً من أجل كرّاس the Handbook of Social Psychology، وهو نظرة عامّة وشاملة ستعرض للقارئ المهتمّ الكثير من النقاشات الحاليّة، وللحصول على نظرة موجزة للأطروحة، انظر: كتاب هايت «الفرضيّة الجديدة في علم النفس الأخلاقيّ» Haidt's, «*The New Synthesis in Moral Psychology*,» Science 316 (2007): 998–1002.

لمناقشة مستفيضة وأكثر تفصيلاً حول موضوع الأخلاق عند الحيوانات راجع: كتاب مارك بيكوف وجيسيكا بيرس «العَدالَة البرّيّة: الحياة الأخلاقيّة للحيوانات» Marc Bekoff and Jessica Pierce, *Wild Justice: The Moral Lives of Animals* (Chicago: University of Chicago Press, 2009).

إنّ الفكرةَ القديمةَ القائلة إنّ العلمَ والعلماءَ ليس لديهم ما يقولونه عن الأخلاق والقيم الأخلاقيّة قد دَحَضَها وقَلَبَها رأساً على عَقِب أحد أبطالي وهو سام هاريس، فهو يجادل في كتابه الأخير «المشهد الأخلاقيّ: كيف يمكن للعلم أن يحدّدَ القيم البشريّة» Sam Harris, *The Moral Landscape: How Science Can Determine Human Values* (New York: Free Press, 2010) أنّ العلمَ والعلماء وعلم الأعصاب عناصر أساسيّة ومركزيّة في تشكيل وصياغة القِيَم الأخلاقيّة البشريّة بجميع أبعادها، والعمل الذي قام به بول بلوم مع الأطفال الصغار ومجموعته في جامعة ييل رائع بكافة المقاييس، انظر: كتابه «طفل ديكارت: كيف يشرح علم تنمية الطفل ما يجعلنا بشراً» Paul Bloom, *Descartes' Baby: How the Science of Child Development Explains What Make Us Human* (New York: Basic Books, 2004)، إنّ تجاربهم الأصيلة، التي تستخلص أنظمة الاستدلال الأخلاقيّ لدى الأطفال الذين تقلّ أعمارهم عن ثلاثة أشهر، في علم النفس في أفضل حالاته.

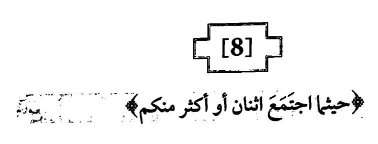
للاطلاع على مقدّمة ممتعة، راجع: مقالة بلوم بعنوان «الحياة الأخلاقيّة للأطفال»، Bloom's article titled «*The Moral Life of Babies*,» صحيفة نيويورك تايمز

New York Times Magazine, May 5, 2010، وروبرت سابولسكي، عالِم الأعصاب في جامعة ستانفورد، مقال ممتع في 14 نوفمبر 2010 في نيويورك تايمز «هذا هو دماغك في الاستعارات» Robert Sapolsky, in the November 14, 2010, New York Times, «*This Is Your Brain on Metaphors*».

يوضّح فيه كيف تستند عواطفنا وأحكامنا الأخلاقيَّة إلى ردود أفعال الحيوانات البدائيَّة، تضيء المنطقة نفسها من دماغنا سواء كنّا نأكل طعاماً فاسداً أو نشُمُّ رائحة نتنة أو نفكّر في طعام مقرف أو نتذكّر بعض الأوغاد الذين سرقوا الأرمَلَة.

يمكن العثور على ديناميّات الإرهاب الانتحاريّ، وخاصّةً أهميَّة سيكولوجيَّة القرابة في عمليَّة التجنيد في ورقة سكوت أتران «أصل الإرهاب الانتحاريّ» Scott Atran's, outstanding «*Genesis of Suicide Terrorism,*» Science 299 (2003):1534–1539.

يصفُ ريتشارد سوسيس أهميَّة الإشارة المكلفة للطقوس الدينيَّة في ورقته «القيمة التكيفيَّة للطقوس الدينيَّة» Richard Sosis, *The Adaptive Value of Religious Rituals* (American Scientist 92 (2004):166–172).



توظيفُ كيمياءِ الدماغِ من خلال الطقس

((إنَّ الأدلّةَ على تطوّر لغات مختلفة وأنواع مختلفة، وأنّ كليهما قد تطوّر عبر عمليّة تدريجيّة، متساوية بطريقة مُلفِتَة)) [تشارلز داروين].

على غرار الأفكار والمعتقدات الدينيّة، نلاحظ أنَّ الطقوسَ والشعائرَ الدينيَّة هي نتيجةٌ ثانويَّةٌ للآليّات الفعليَّة المُصَمّمة أصلاً لأغراض مختلفة أخرى.

تقومُ الطقوسُ والشعائرُ بتضمين المعتقدات ونقلها ونشرها عبر الزمان والمكان، وقد رأينا مدى هَشاشة العقل البشريّ وضعفه وقابليته لتوليد وتقبّل الأفكار الدينيَّة والإيمان بها، ولو أنَّ الأمرَ توقّف عند هذا الحَدّ، لتراجعت الأفكار الدينيَّة وخَسِرَت المعركة واندَثَرَت، لكن من خلال تعبئة المواد الكيميائيَّة القويَّة في الدماغ التي تثير فينا مشاعر وخبرات عاطفيَّة قويَّة وبالغة، وتولّد فينا أحاسيس وعواطف متفاوتة كتقدير الذَّات، واللذّة، والخوف، والتحفيز، والراحة من الألم، والارتباط، فالدين يخلق كُلاً متماسكاً أقوى بكثير من مجموع أجزائه.

إنَّ الطبيعةَ الجَماعيَّةَ للطقس تأخذُ عقولَ الأفراد المبرمجة أصلاً على الإيمان وترمي بها

ضمنَ حلقةٍ مُفرَغَةٍ ولانهائيَّةٍ من التعزيز المُتبادل، خالقةً مجموعة متبدّلة من القوى الشعوريَّة واللاشعوريَّة، بمعنى ما هناك دينٌ حقيقيٌّ وحيد فقط، أسّسه سَلَفنا الصيّاد الجامع، الإنسان العاقل الأصليّ/ الهومو-سابينس في إفريقيا، منذ حوالي 50,000 إلى 70,000 عام، أمّا نظرتنا المتعمّقة في الزمان، إلى أصل ونشأة هذه الطقوس والشعائر وتأسيسها، فتنبع من ثلاث مجموعات باقية من زمن الصيّادين الجامعين.

* أولاً- هناك الكونغ سان بإفريقيا، الذي عاش حتى فترة قريبة حياة الإنسان الصيّاد الجامع.

* ثانياً- هناك قبيلة عاشتْ منعزلة عن العالم حتى القرن العشرين في جزر أندامال بخليج البنغال، ويُعتَقَد أنَّ أفرادَها ينحدرون من المجموعة البشريَّة الأصليَّة التي غادرتْ إفريقيا، وسافرتْ جنوباً حول شبه الجزيرة العربيَّة، ثمّ حول الهند، حتى وصلَتْ في النهاية إلى إندونيسيا وأستراليا.

* ثالثاً- سكّان أستراليا الأصليون، الذين قَدِموا من إفريقيا دُفعَةً واحدة حسب ما تُظهره لنا الأدلّة الجينيَّة.

هذه القبائلُ الثلاث كلّها لديها أديان متشابهة ومتماثلة فيما بينها بشكلٍ يَبعَثُ على الدهشة، فجميعها تقوم على الغناء والرقص والنشوة، لماذا؟

يتبيّن لنا أنّ تلك نشاطات توظّف بعض أقوى كيميائيّات أدمغتنا وأشدّها تأثيراً، تلك الكيميائيَّات التي تؤثّر على المتعة، والخوف، والحبّ، والثقة، وتقدير الذَّات، والارتباط، وكانت أديان أجدادنا على درجة كبيرة من القوَّة لدرجة أنّك إذا اقتربت كثيراً وأمعنت النظر ستجد بقايا من هذه الأديان البدائيَّة في جميع الديانات والعقائد المنتشرة في جميع أرجاء العالَم في يومنا هذا، فكما أنّنا جميعنا أبناء وبنات تلك المجموعة الصغيرة من الصيّادين الجامعين الذين هاموا في جميع أرجاء إفريقيا منذ ما لا يزيد عن مئة ألف عام، كذلك فإنَّ جميعَ دياناتنا مشتقّةٌ ممّا اكتشَفَته من أثَر وقوّة كامنين في الغناء والرقص والنشوة.

الكيمياءُ الدماغيَّةُ للطقس

تتواصَلُ خلايا الدماغ فيما بينها عن طريق الموصِلات العصبيَّة، سامحِةً للإشارات بالمرور من خليَّة إلى أخرى.

كلُّ حيوانٍ مُزَوّد بنظام عَصَبيّ مَركَزيّ، يمتلك مُركّب السيروتونين Serotonin، أقدم فئة من الناقلات العصبيَّة التي تُسَمّى بأحاديّات الأمين monoamines. تكمُنُ عصبونات السيروتونين ضمن جذع الدماغ وتُرسل دَفعات عبر الدماغ لأسباب عديدة ومتنوّعة، من بينها الحركة الميكانيكيَّة التكراريَّة والفَجّة، لكنّ النقطةَ الأهم بالنسبة إلى موضوعنا هنا هي أنّ السيروتونين يعدّل كيميائيّاً تقديرنا لذاتنا بالتوازي مع ردود الفعل الاجتماعيَّة.

إذا تمّ طردي أو فصلي من جميع أعمالي، سينخفض مستوى السيروتونين لديّ، ومن المُحتَمَل أن تؤدّي خسارتي لمكانتي الاجتماعيَّة إلى الاكتئاب والهياج في داخلي، وعلى العكس، إذا أصبَحتَ أنتَ، أيّها القارئ، رئيس الولايات المتّحدة الأمريكيَّة، سواء كنتَ ترغب بذلك أم لا، فستزداد مستويات السيروتونين لديك، وستشعر بالمزيد من التقدير، إنَّ أدويةَ مضادّات الاكتئاب الحديثة كالبروزاك مثلاً تزيد من نشاط السيروتونين.

بينما تجلس الآن بهدوء وتقرأ هذا الكتاب، فإنَّ عصبوناتِ السيروتونين في جَذع دماغك تعمل بسرعة تبلغ ثلاث دورات بالثانية، أمّا إذا كنتَ واقفاً، أو تتحرّك، فإنّ سرعتها تزيد إلى خمس دورات بالثانية، وحين تقوم بتمرين صَعب أو شاق، فإنَّك تتلقّى دُفعَةً كبيرةً من السيروتونين.

هناك ناقلٌ عصبيٌّ أحاديّ الأمين آخر وهو الدوبامين Dopamine، الذي يرتبط بشكلٍ عام بالشعور بالمتعة، هناك منطقةٌ غنيّة بالدوبامين تبرُق في دماغنا تسمّى بالنواة المُتكئة nucleus accumbens باللذة كاستجابة لمحفّزات معيّنة كالطعام والجنس والمخدّرات، وهذا ما يؤدّي إلى استجابة «افعَلها مُجَدّداً» للوجبات السريعة.

ومع ذلك، فإنَّ الدوبامين أكثر من مجرّد مادّة كيميائيَّة ممتعة، يشارك الدوبامين في أداء وظيفة

العضلات، والحركات الميكانيكيَّة الدقيقة، والسلوك القهريّ المتكرّر، والمثابرة، والتكرار الذي لا يمكن السيطرة عليه لاستجابة معيّنة [الوسواس القهريّ]، لقد كان نظير الدوبامين هو الذي أعاد مؤقّتاً إحياء مرضى الشلل الذين عالجهم عالِمُ الأعصاب أوليفر ساكس، الذي سجّل هذه الظاهرة في كتابه عام 1973، «الاستيقاظ» الذي تمّ تصويره لاحقاً في فيلم عام 1990 لإضفاء مكانة بارزة وحسّاسة عليها، وتوقّع مكافأة ما عند الضرورة.

آخر النواقل العصبيَّة الأحادية الأمين هو الإيبينفرين Epinephrine والنورإيبينفرين Norepinephrine، والمعروف باسم الأدرينالين والنورأدرينالين، يزيد الأدرينالين من معدّل ضربات القلب، ويجعلنا نشعر بالقلق وعدم الارتياح، ويُرَكّز انتباهنا، ويزيد من نسبة التعرّف، كما أنّه يزوّدنا بدفعات مؤقّتة من القوّة، ممّا يساعدنا على الفرار أو القتال، كما يسمح لنا أحياناً بتأدية مآثر جسديَّة قد تبدو مستحيلة، كرَفع أم لسيارة ثقيلة من أجل إنقاذ طفلها.

الأوكسيتوسين Oxytocin له أهميَّة خاصّة في الطقوس الدينيَّة بسبب خصائصه الداعمة والمُعَزِّزة لآليَّة الترابط، فأثناء الولادة، يفرز دماغ الأم جُرعَةً عالية من مادّة الأوكسيتوسين استجابة لتوسّع عنق الرحم والمهبل، وتؤدّي الرضاعة الطبيعيَّة إلى إدرار الحليب، الذي يؤدي بدوره إلى تحفيز فَرز المزيد من الأوكسيتوسين، كما أنّ الأوكسيتوسين يخفّف من ارتباطات الأم الأخرى غير الضروريَّة ويساعدها على التركيز على الرضيع والتعلّق به والالتزام بتلبية متطلّباته، كما تزيد نسبة الأوكسيتوسين أثناء الإثارة الجنسيَّة، وإطلاق النشوة، ممّا يُضفي تأثيراً ممتعاً ورائعاً على ممارسة الجنس.

يولّد الأوكسيتوسين مشاعر الثقة والحبّ والتعاطف والكَرَم عند كِلا الجنسين، كما أنّه يخفّف من الشعور بالخوف، وربّما يكون له تأثير إيجابيّ على جميع مشاعرنا وتفاعلاتنا الاجتماعيَّة، كانت الأديان المبكّرة القادرة على استغلال تأثير الأوكسيتوسين قادرة على التسلّل إلى أقوى المَلَكَات والقدرات الإنسانيَّة وأكثرها مُتعَةً وخطورة.

الأندورفينات endorphins، آخر المواد الكيميائيَّة العصبيَّة ذات الأهميَّة الخاصَّة للدين، إنَّه الأفيون الداخليّ لدينا، وهذه الكلمة مشتقّة في الواقع من كلمة «المورفين الداخليّ

endogenous morphine»، وتتمثّل وظيفته الأساسيَّة في منع الألم عند حدوث إصابة، ويتمّ إنتاجه عن طريق التمارين والإثارة والألم واللمس/ المداعبة والضحك والموسيقا والنشوة الجنسيَّة والفلفل الحار والمشيمة.

إذا تمّ إدخال عَدّاء رياضيّ في جهاز التصوير الشعاعيّ للدماغ بعد ركضه لمسافة طويلة، سنرى مستقبلات الأندورفين تبرق في دماغه؛ إنَّ الزيادةَ في مستوى الأندورفين هي التي تسبّب «نشوة العَدّاء»، وتحدث بعد تمرينٍ شديدٍ وقاسٍ.

بالنسبة إلى أسلافنا القدماء، كان السببُ وراء دفعات الأندورفين يتمثّل في البقاء على قيد الحياة، وتشير التمارين القويَّة عموماً إلى وجود خطر محتمل بالإصابة، سواء كانوا يصطادون أو يطاردون طريدة أو يتمّ مطاردتهم، وإذا وقعتْ الإصابة، فإنّ أدمغتهم كانت جاهزة لذلك، ممّا يوفّر لهم مُسَكّناً طبيعيّاً للألم؛ مادة كيميائيَّة تسمح لهم أيضاً بالشعور بالقوة والسيطرة، حتى يتجاوزوا جميع التهديدات والمَخاطر المُحتَمَلة على الأقلّ، هذا هو السبب في أنّ المحاربين في عطلة نهاية الأسبوع يمكنهم اليوم مواصلة نشاطهم بعد مهمّاتهم القتاليَّة -حتى اليوم التالي على الأقلّ- تماماً كما كان أسلافهم فيما مضى بمَأمَنٍ من التهديد المباشر.

يسهّل الأندورفين أيضاً الروابط الاجتماعيَّة ويعزّزها ويزيد من إفراز مادّة الدوبامين؛ إنَّها دورةٌ كيميائيَّةٌ فريدةٌ من نوعها فيما يتعلّق بالموصلات/ النواقل العصبيَّة، وعلى الرَّغم من أنّ لكلّ منها وظيفةً محدّدة، إلا أنّها تتداخل فيما بينها ويمكن أن تُعَزّز ويحفّز بعضها بعضاً، ممّا يؤدّي إلى تكوين توليفات فريدة يمكن استغلالها لأغراض محدّدة، الأمر الذي يعود بنا إلى موضوع الطقوس الدينيَّة.

من دون أيّ معرفة بالكيمياء العصبيَّة، عثر أسلافنا بطريقةٍ ما على مجموعة من الأنشطة التي يمكن أن تحفّز وتُعَزّز السيرتونين والدوبامين والإبينيفرين والنورإبيينفرين والأوكسيتوسين والأندورفين، ممّا يخلق نشاطاً دماغيّاً ناجماً عن هذه التوليفات؛ هذا هو المفتاح لفهم مبدأ الطقوس والشعائر في جميع الثقافات لأنّه -وبشكل حرفيّ- لا يوجد شيء مثلها.

إنَّ كلمةَ «دين» الإنكليزيَّة Religion مشتقّة على الأرجح من الكلمة اللاتينيَّة ***religare*** التي تعني «يربط، يعلّق»، وقد استحوذتْ الطقوسُ الدينيَّة التي ابتكرها أسلافنا القدماء على كيميائنا الدماغيَّة بطريقة إنسانيَّة فريدة من نوعها، ربطتْ الناسَ ببعضهم البعض وسهّلتْ الروابط الاجتماعيَّة وعَزّزتها.

للبقاء على قيد الحياة والنجاة في بيئة معادية، أنشأ أسلافنا جماعات مترابطة اجتماعيّاً، والتي خلقتْ بدورها مجموعات صغيرة من المشاكل، واجهت الجماعات خلافات ونزاعات شخصيَّة، والتي كان من الممكن أن تقوّض الجماعة وتقضي عليها إذا لَم يتمّ حلّها، ولكن ضمن جنس احتماعيّ كجنسنا، لم تكنْ الفوضى خياراً تطوّريّاً، فإذا تصرّف أحد أفراد الجماعة بطريقة مسيئة ومعادية لها ومُهَدّدة لبقائها واستقرارها يظهر فرد أو مجموعة من الأفراد الذين يتجرأون على تأديب هذا الفرد المارِق تحت خطر إقدام أقارب هذا المسيء أو أصدقائه على الانتقام منهم، لكنّ القوى الماورائيَّة غير المرئيَّة -أسلاف سابقون أو آلهة بدائيَّة- يمكنها أن تحدّدَ العقوبة وتعزّز قيم الجماعة وتماسكها بسهولة ويقظة دائمة.

تدعمُ الأبحاثُ المعاصرةُ هذه الفرضيَّة، ففي دراسة حول آثار الدين على العقوبة، أظهر ريان ماكّاي وزملاؤه في زيوريخ وسويسرا وإنكلترا أنّ المشاركين الذين قُدّمَتْ لهم إيحاءات دينيَّة مُبَطّنة (برمجَة دينيَّة) عند تحديد عقوبة تجاه سلوك جائر عند الآخرين كانوا يميلون لإنزال العقوبة بهم أشّدّ وأقوى من الباقين، تمّ تحضير المشاركين وبرمجتهم بطريقة لاشعوريَّة مبطّنة بقواعد العقاب الدينيّ، وقواعد العقاب الدنيويّ، وقواعد السيطرة، فقد زاد الدين من شدّة العقوبة،؛ إذ إنَّه تجاوز في شدّته المجموعتين الأخريين، كانت هناك آليتان قيد العَمَل: الأولى كانت آليَّة «المراقب الغيبيّ/ الخارق للطبيعة»، فالمشاركون المتديّنون لا يتساهلون في معاقبة السلوكيَّات الجائرة والمسيئة حين يُبَرمَجون لأنّهم يشعرون بأنّ الفضلَ في القيام بذلك سوف يُغضِب أي يخيّب آمال هذا الكائن الخارق للطبيعة، والآلية الثانية تضمّنت التفعيل الدينيّ للمعايير الثقافيَّة المتعلّقة بقواعد الإنصاف وتنفيذه.

وبالتالي، فإنّ خَلقَ أو تصوّر الآلهة أو أسلافاً سابقين كانت خطوة مهمّة جداً وحيويَّة، ولو

أنّها نَتَجَت عن لاوعي، وبصورة غير عقلانيَّة، وخَلَقَتْ طقوساً للمساعدة في التواصل مع تلك القوى غير المرئيَّة على الأرجح كانتْ الخطوة المنطقيَّة التالية، لكن إذا كانتْ الطقوسُ بالبداية تستدعي شخصيَّات غير مرئيَّة ذات قوى ماورائيَّة، كيف أصبح أسلافنا يؤمنون بوجود آلهة معيّنة وغير مرئيَّة، أو يتقبّلون فكرة أنَّ الأسلافَ الأموات منذ زمن مازالوا محتفظين بسلطتهم وسطوتهم؟

حسناً، لقد عُدنا مجدّداً إلى اللبنات الرئيسة الأولى للإيمان، تصوّر قوّة أعلى منّا، والشعور بالقدرة على التواصل أو التفاعل مع تلك القوّة، وما إلى ذلك.

في ذلك الوقت، كما هو الحال الآن، كان الله نتاجاً للعقل، أو بمعنى أدق نتيجة ثانويَّة للآليَّات المعرفيَّة للعقل.

دورُ الأحلام في الطقس، والنشوة

لا بدّ أنَّ أسلافنا كانوا يحلمون -حرفيَّاً- بالآلهة، أمّا اليوم، فنحن نعرف تماماً أنَّ الأحلامَ هي نتاج أدمغتنا، وأنّها قد تمنحنا نظرة عميقة إلى حياتنا العاطفيَّة، ونحن نقبل بأنّها قد تكون أو لا تكون منطقيَّة، وقد أطلق سيغموند فرويد على الأحلام «الطريق المَلَكيّ إلى اللاوعي)).

ولكن على حَدّ علمنا، فإنَّ مجتمعاتِ أسلافنا القديمة لَمْ تَكُنْ تَضُمّ معالجين مَهَرَة، بل حتى أفضل العلماء والمعالجين النفسيين اليوم لا يمكنهم التأكّد تماماً من الكيفيَّة التي تحدث فيها أحلامنا أو لماذا تحلم بأشياء معيّنة دون غيرها، لكنّ أسلافنا كانوا يحلمون أيضاً، ونحن لدينا سبب للاعتقاد بأنّهم آمنوا بقوّة أحلامهم.

بدايةً من القرن الخامس قبل الميلاد، قام اليونانيون القدماء، وهم كانوا حضارة حديثة نسبياً ومستنيرة إلى حَدّ كبير، ببناء مراكز عبادة ومعابد لإله الشفاء أسكليبيوس، كان المواطنون يذهبون إلى المعابد للنوم هناك ويحفّزون أنفسهم لرؤية أحلام أثناء نومهم عن طريق طقوس الصلاة والصيام، وباستخدام معلومات مُستَقاة من الأحلام للشفاء والإيمان

بأنّ الآلهة كَشَفَت عن نفسها عبر الأحلام، كما رأى المصريون القدماء أنَّ الأحلامَ هي المصدر الرئيس للمعلومات الإلهيَّة.

لنرجع قليلاً بالزمن خلال مسيرة التطوّر البشريّ: تخيّل صيّاداً جامعاً نائماً في سهول إفريقيا منذ عشرة آلاف عام، يزوره قريبه الذي توفّي منذ فترة قصيرة في المنام، لكنّه كان مناماً غير واضح أو مفهوم، قد يبدو من المنطقيّ قبول المناظر الطبيعيَّة الغريبة للأحلام كواقع غير مرئيّ، ربّما عالَم آخر مليء بأرواح الأسلاف الذين كانوا أكثر حكمةً وقوّة، أو بعض أنواع الآلهة التي يمكن أن تقدّم الهِدَايَة والإرشاد.

اجْمَعْ بين ذلك، والشعور بالدهشة في العالَم الطبيعيّ، واخلِطْ معهما سِمَة الإدراك المنفصل، الذي يسمح لنا بقبول وجود كائنات غير مرئيَّة كما أسلَفنا سابقاً، ويمكننا أن نحصُلَ على تصوّر أوّليّ للإله أو الآلهة.

لَن نعرفَ بالضبط أبداً كيف خَلَقَ أسلافنا الآلهة البدائيَّة، ربّما تكون الآلهة قد خُلِقَت أيضاً كشخصيَّات أو تفسيرات للقوى الطبيعيَّة مثل النار، التي ماتزال موجودةً ضمن طقوس معظم الديانات، على شكل شموعَ موقَدَة.

تخيّل أنَّ أسلافنا استخدموا النار لأوّل مرّة، لا بدّ أنّها بَدَتْ أعجوبَةً بالنسبة إليهم، ادمجْ ذلك مع التغيّرات المناخيَّة القاسية والبراكين والشمس والقمر وعجائب الطبيعة الأخرى، كما هو الحال مع جميع الظواهر النفسيَّة القوية الأخرى، كان هناك بلا شكّ محدّدات متعدّدة لتلك الكائنات الخارقة للطبيعة.

مع بزوغ فجر الآلهة ربّما بزغ فجر الرغبة في التواصل معها، والوصول إليها عند الحاجة، وليس فقط أثناء النوم. وعلى غرار أسلافهم اليونانيين القدماء، إذا أراد أسلافنا التواصل عَن قصد مع عالَمَ الأحلام هذا، بدلاً من الاعتماد على الصدفة أثناء النوم، كان عليهم تعبيد «طريق مَلَكيّ» خاص بهم، لذا من الممكن جداً أن يكونوا قد تعلّموا -قدر الإمكان- الدخول في حالة نشوة؛ حالة يَقَظَة، حالة أحلام يَقَظَة مُتَعَمّدَة، من خلال الرقص وقرع

الطبول والغناء لساعات طويلة أو لأيام متتالية.

مثل الكثير من ثقافات الأمريكيين الأصليين، ربّما يكونون قد عَزَلوا أنفسهم وعانوا من الحرمان الحسّيّ ممّا جعلهم يشعرون بوجود الآخر وحضوره، والشعور بالانسجام مع كلّ شيء، يمكن للصيام أن يشوّش الإدراك والتصوّرات ويسبّب الهلوسة أحياناً، معظم الأديان تبشّر بالصيام، ربّما من أجل تأثيراته المُعَزِّزة للرؤية، وبما أنّ أسلافنا قد ابتكروا هذه الطقوس بمرور الزمن، فقد تعلّموا تعزيز تلك النواقل العصبيّة وابتكار التقنيات الحيويّة لتماسك الجماعة.

من المحتمل أيضاً أنّ أداةَ الكشف عن الوكالة المفرطة النشاط، التي تحدّثنا عنها سابقاً، والتي تميل لنَسب قوى بشريّة إلى مشاهد وأصوات مجرّدة، تمّ شحنها بواسطة المواد الكيميائيّة العصبيّة أثناء الطقوس، ممّا جعل أسلافنا يؤمنون ليس فقط بالأسلاف غير المرئيين بل بكيانات أخرى شبيهة بالبشر.

إنَّ الطقوسَ البدائيَّةَ المبكّرة التي تركّز على الأنشطة والأمور التي نعرفها الآن يمكن أن تغيّرَ من كيمياء الدماغ وتعدّلها: كالموسيقا، والغناء، والنشاط الإيقاعيّ المكثّف، والعاطفة القويّة، إضافةً إلى الحرمان من النوم، أغلب الطقوس كانتْ شاملةً حرفيّاً؛ إذ يرقص الناس ويغنّون طوال الليل أو لفترة أطول، وقد أدّى هذا النشاط المكثّف والمطوّل إلى وصول المواد الكيميائيّة في الدماغ إلى ذروة نشاطها.

من المحتمل أنّ أسلافنا وجدوا أنَّ الرقصَ (وربّما بعض المواد المهلوسة) تسبّب النشوة، وأنَّ هذه الطقوس سَمَحَتْ بظهور لما بدا أنّه وصولٌ مُتَعَمّد إلى عالَمِ الكائنات غير المرئيّة، كما كانت بمنزلة إثبات عَلَنيّ لوجود عالَمٍ آخر ووجود أرواح غير مرئيّة فيه، فكّروا في كيفيّة اشتقاق كلمة «حماسة *enthusiasm*» من الكلمة اليونانيّة « enthousiasmos» التي تعني «ممسوس من قبل الآلهة».

خلال الطقس، كان يتمّ التركيز على الجماعة، وليس الفرد، إذ يمكن للطقوس أن تخلقَ

وتنقلَ الأخلاق والتعاليم الضروريَّة لبقاء المجموعة، وقد نجحت الطقوس في إنجاز ما لَمْ يستطِعْ الأفراد تحقيقه: يمكنهم الاطلاع على عالم مليء بالأخطار الخفيَّة المُحدِقة، وخاصّةً عالَمَ الأسلاف الميتين الذين بلغوا قسطاً من الحكمة.

تميّزتْ هذه الطقوسُ الدينيَّةُ المبكّرةُ بشعائر العُبور *rites of passage*: الولادة والبلوغ والزواج والموت، وقد لاحظ عالِمُ الأنثروبولوجيا رودني نيدهام أنّه في مجتمعات الصيد والجمع المتبقية اليوم، يَلعَبُ الإيقاعُ دوراً قوياً في تحديد التحوّلات الحياتيَّة اليوميَّة.

تظلُّ الطقـوسُ التـي تتمحـور حـول التحـوّلات، والتـي تتميّز بالإيقـاع، بـارزةً في كلّ ثقافـة حتـى يومنـا هـذا، وتبقـى ذكريـات الأخويـات الجامعيَّـة، حيـث تمثّـل المضايقـات وبعـض أنـماط التعذيب والتنمّـر تقليـداً من طقوس التنسـيب المخيفـة والمؤلمـة... والمميتة في بعـض الأحيان.

جميع القبائل الثلاث الباقية التي تمنحنا بصائر عميقة إلى الماضي تستخدم طقوس العبور والتنسيب لإيصال الأفراد إلى أسرار القبيلة، يمكن أن تكون طقوسُ التنسيب صعبةً ومؤلمة ومخيفة، وبالتالي تطلق المواد الكيميائيَّة العصبيَّة ذات الصلة، والرابطة الناتجة تقوّي وتُعَزّز روابط القبيلة، هكذا تعمل الطقوس والشعائر المتكرّرة على تنشئة الرجال استعداداً للحرب وتجعلهم موالين وتغرس روح الشجاعة في نفوسهم، والتعلّق بأعراف القبيلة وقيَمها والالتزام بها.

يطلق سكّان أستراليا الأصليون اليوم على الزمن السابق للتاريخ اسم «زمن الأحلام»، حين كانتْ الكائناتُ الأسطوريَّة تجوب الأرض وتقاتل وتصطاد وتخلق العالَمَ الطبيعيّ، وحتى يومنا هذا، تظلّ طقوساً معيّنة سريَّة ومخفية عن أعيُن الغرباء، وتستمرّ في خَلق روابط القبيلة وتماسكها وتُعَزّزها.

نحن نعلم أنَّ احتفالاتِ السكّان الأصليين طويلة، وغالباً ما تتكوّن من ترديد أو إنشاد أساطير «زمن الأحلام»، والتمعّن في الأشياء المقدّسة، وسرد القصص والحكايا، وتعريف

المنتسبين الجُدُد بالأساطير والأسرار الدينيَّة للقبيلة، وتشمل الطقوس الرقص وتقليد حركات الحيوانات الطوطميَّة، والتصفيق بالأيدي، والرَجم بالحجارة أو الضرب بالعصيّ، وفي بعض أنحاء أستراليا، العزف على آلة الديدجيريدو [آلة نفخ أستراليَّة قديمة].

الطقسُ كآليَّة بقائيَّة

حَلّتْ طقوسُ أسلافنا الدينيَّة العديد من المشكلات في وقتٍ واحد، يمكن للمجموعة أن تُنزِلَ العقاب بالمُخالفين، وتحلّ النزاعات فيما بين أفرادها، وتعيّن الفرسان الأحرار، وتسوّي الخلافات، وتوزع الأملاك والإقطاعات، وتخلق ساحة للإشارات الصادقة والمخلصة والمكلفة، التي يصعَب تزييفها، وقد تكون الطقوس قد حَلّت مشكلة بقائيَّة بسيطة للغاية عن طريق إخافة الحيوانات المفترسة من خلال التجمّعات البشريَّة.

ربَّما لم يكُنْ لهذه الديانات المبكّرة كَهَنَة أو سَدَنَة أو تسلسل هَرَميّ كَنَسيّ، ربّما كان هناك رجال متفوقون أو كبار حكماء يحتلّون مناصب شبه قياديَّة، ممّا أدّى لاحقاً إلى ظهور الشامانية *Shamanism*، لكنّ هؤلاء الرُسُل الماديين من العالَم غير المرئيّ، يفصلون «المِهَن» الكهنوتيَّة التي تُشبه كَهَنَةَ العصر الحديث، على الأرجح لم يكونوا موجودين.

كما يشير نيكولاس ويد في كتابه «غريزة الإيمان»، تولّد الطقوسُ إحساساً قوياً بالترابط والرهبة، ورغبةً في وَضع مصلحة الجماعة فوق المصلحة الشخصيَّة، «إنّها تَربُط عقدة أنيقة»، نحن نفقد إحساسنا بأنفسنا ونغدو مندمجين ومرتبطين بقوّة مع مَن نشاركهم الطقوس ونغنّي ونرقص معهم طوال الليل.

يدعمُ السّجِلّ الأثريّ والأنثروبولوجيّ النتيجة القائلة إنَّ أسلافنا من الصيّادين الجامعين قد حافظوا على هذه الطقوس حيثما حَلّوا، واستمرّتْ طقوسهم المنقولة والدائمة في التركيز على الغناء والرقص والانتشاء.

نشأتْ المجتمعاتُ المستقرّةُ منذ 15,000 سنة، وتمّ اكتشاف الزراعة منذ 10,000سنة،

وعلى الرَّغم من وجود عدد قليل من الصيّادين الجامعين اليوم، فإنَّ الدينَ الذي خلّفه أسلافنا من الصيّادين وقاطفي الثمار أصبح قوياً للغاية بحيث باتَ من المتعذّر التخلّص منه، وبذلك تطوّر الدين مع تطوّرنا نحن.

لقد أصبحتْ الإنسانيَّةُ في الأساس زراعيَّة، وقد اتّخذ الدينُ بدوره إيقاع الفصول وتقلّبها، وهو أمرٌ مهمٌ جداً بالنسبة إلى الزراعة، ونحن مازلنا نرى هذا الإرث حتى يومنا هذا، لقد خلقتْ الدياناتُ الوثنيَّةُ ووحدة الوجود طقس الأوسترا، أو عيد الربيع، في الديانة اليهوديَّة، يمثّل احتفال سوكوث أو عيد المظلّة نهاية الحَصاد، وعيد الفصح مؤشّر على بداية عيد الشعير، ويحدّد يوم شافاؤوت نهاية موسم حَصاد القمح، وقد أدرَجَتْ المسيحيَّةُ هذه الطقوس في عيد الفصح وأعياد أخرى.

مع ظهور المجتمعات المتحضّرة والمثقّفة منذ 5000 عام، لَم يَعُد الوصول إلى الماورائيّ أو الخارق للطبيعة أمراً ديمقراطيّاً وممكناً للجميع، بل اقتصرُ الأمر على الكَهَنَة والسَدَنَة، فقد أُسِّسَتْ الطوائفُ الكهنوتيَّة المتحالفة مع السلطة السياسيَّة، حيث وَضَعَتْ قيوداً على هذه العمليَّة، وقد أدرَكَ الكَهَنَة والشامانات أنّهم يمتلكون سلطةً مُطلَقَةً بدون مسؤوليَّة؛ إذ كان بإمكانهم إلقاء اللوم على الآلهة القائمة، وزَعَموا أنّهم مجرّد رُسُل من عندها.

كانتْ الطقوسُ الأولى في الغناء والرقص والانتشاء تمثّل المستويات الاجتماعيَّة، حيث ربطت دعائم المجتمع وتغلّبت على أيّ ترتيب هَرَميّ، وقد أدّى التحرّك نحو مجتمعات أكثر استقراراً وتحضّراً إلى خلق طبقات اجتماعيَّة أكبر.

في بعض الديانات، أُلغِي طقسُ الرقص -بكلّ ما يمثّله من مساواة اجتماعيَّة- ولكن تمّ الإبقاء على الحركات الإيقاعيَّة المتناسقة، خُذْ الصلاة الإيقاعيَّة المنسّقة عند المسلمين كمثال؛ مجموعة من الرجال، المصطفّين بشكل متماثل ومتواز، رُكّعاً وساجدين بانسجام كبير، نوع من الرقص الإيقاعيّ على الأرض، أو اذهَب إلى قدّاس روميّ كاثوليكيّ وشاهد طقس الركوع أمام المَذبَح، الركوع والجلوس والوقوف أثناء تأدية القدّاس أو المُناوَلة، وانظر في دور الترانيم والتراتيل الغريغوريَّة في الطقوس اللاتينيَّة للكنيسة مؤخّراً خلال فترة الستينيات،

انظر إلى قوّة الموسيقا المرافقة لقراءة الإنجيل في الكنائس الأمريكيَّة الإفريقيَّة التقليديَّة وتأثيرها، والتي تمتدّ بجذورها عميقاً في طقوس الرقص الإفريقيّ.

في الديانات الأخرى، نرى قوّة الطقس في المقام الأوَّل لأنّها ما تزال تحتفظ بهيبتها وتأثيرها، بعض المعمدانيين الجنوبيين لا يمارسون الحبّ وهُم قِيام حتى لا يعتقد الله أنّهم يرقصون، والمقاعد في الكنائس المسيحيَّة لَم تبدأ كأماكن للجلوس عليها، بل أصبحتْ هذه فكرة لاحقة، لقد وُضِعَتْ المقاعد في الكنائس الأوروبيَّة خلال القرن السادس عشر لَمنع الرقص.

إنّها تبقى لكنَّها غالباً ما تفشل في لَجم المُصَلّين في بعض الصالات الكبرى.

بالنسبة إلى أسلافنا كان الغناء والرقص والموسيقا والحركة طقساً واحداً وموحّداً.

ما تزال أصولُ الموسيقا موضعَ نقاشٍ وتساؤل، هل هي نتاج آليات ثانويَّة أخرى لأحرف العلّة الساكنة التي وُضِعَت أصلاً على إيقاع ضربات القلب، أم أنّ الموسيقا هي تكيّف قائم بذاته فعليّاً؟

اعتَقَدَ داروين أنّ الموسيقا كانتْ واحدةً من أفضل الأمثلة على فكرته عن الانتقاء الجنسيّ.

((أنا أرى أنّ النوتات الموسيقيَّة والإيقاع قد اكتسبها في البداية أسلاف البشر من الذكور والإناث من أجل إغواء الجنس الآخر، وقد ارتَبَطَتْ النغمات الموسيقيَّة ارتباطاً وثيقاً ببعض أقوى المشاعر التي يمكن للحيوان الشعور بها))، وقد أشار داروين إلى أنَّ جميعَ المشاعر التي تولّدها الموسيقا لها علاقة بالحبّ الرومانسيّ.

يشيرُ هذا إلى جانبٍ آخر من الطقوس الدينيَّة الأصليَّة، اعتبرها نسخة مُبَكّرة من رقصة في الساحة بليلة السبت، فرصة للبحث عن شركاء مُحتَمَلين وتقييمهم، ما هي أفضل طريقة لقياس قوّة وتنسيق وتناسق أفراد المجموعة وتقييم شخصيتهم، ورؤية الآخرين للفرد كما يتخيّلونه؟

الغناءُ والرقصُ والنغماتُ هي إشاراتٌ صادقةٌ وصريحةٌ لا تحتمل التزييف وتعبّر عن «جَدارةِ الشريك».

الوقايةُ

طبعاً شاهَدتَ من قبل رياضيّاً كاثوليكيّاً وهو يتقدّم نحو خَطّ البداية ليبدأ السباق ثمّ يرسم علامة الصليب على صدره؛ إنّه يناشد إلهه ويخفّف من حدّة قلقه، كما يقوم نجم كرة السلّة، ليبرون جيمس، بطقوس غريبة وعديدة قبل بدء كلّ لعبة؛ إنّه يَسكُبُ كمّيّةً كبيرةً من بودرة التالكوم على يديه، ويصفّق بها، مع رَشّ المسحوق في كلّ مكان، ثمّ ذَرّ الباقي في الهواء باتجاه المشجّعين المبتهجين، وهذه دفعة لطيفة من الطمأنينة وتخفيف من حدّة القلق والتوتر، هذه التصرّفات الوَسواسيَّة/ القَهريَّة المتكرّرة بمنزلة وسيلة لتهدئة الخوف والتوتر.

اعتقدَ سيغموند فرويد أنَّ الدينَ ما هو إلا اضطراب وَسواس قهريّ في المجتمع، وأنّ اضطرابَ الوَسواس القهريّ كان ديناً خاصاً بالفرد، لقد لَمَحَ الرابطة ولكنّه لَم يَكُنْ يمتلك الأدوات الضروريّة لفهمها تماماً، نحن نعلم الآن أنَّ الدماغَ يضُمّ أنظمةً وقائيّةً حَذِرَة يمكن تحفيزها واستثارتها لاتخاذ إجراءات قهريّة متكرّرة أو نَمَطيّة وَسواسيّة لتهدئة القلق وتخفيف التوتر، وتُستَخدَم هذه الآليّات نفسها خلال الطقوس الدينيّة وتساعد على تخفيف مشاعر القلق والتوتر الناجمين عن عَدَم اليقين أو المخاطر المحتملة، وكلاهما أمرٌ متأصّلٌ في الحياة، لكنّهما أكثر حضوراً في عالَم أسلافنا القاسي والخطير بشكلٍ خاص.

التناغمُ والاتّحادُ

تستخدمُ الطقوسُ الدينيّةُ الخلايا العصبيّة المرآتيّة لدينا، والتي ستتم مناقشتها بشكلٍ أكثر تفصيلاً خلال الفصل اللاحق، وربّما كان الغَرَضُ الرئيس والأصليّ من هذه الخلايا العصبيّة المرآتيّة هو المساعدة في إعداد الكائن الحي للتعلّم وابتكار حركات جديدة، والطقوس الدينيّة تستغلّ هذه الخاصيّة أيّما استغلال.

من الصعب أن تُمسِكَ نفسك عن الرقص حين يرقص الآخرون من حولك، وتُسَهّل الخلايا العصبيَّة المرآتيَّة ذلك في تناغُم مُنَسّق، وقد أظهَرَتْ الأبحاث في كلية ستانفورد للأعمال أنّ مجرّدَ الانخراط في نشاط متناغِم، حتى بدون جَهد عضليّ شديد، سيُعَزّزُ شعورَ التعاون والتعاضد وجميع المشاعر المُصاحبة له، هناك اختلاف في شعورك تجاه الآخرين حين تتجوّل كمجموعة أو تمارس المشي في خطوات ثابتة ومتناسقة معهم.

انخَرِط في نشاط عضليّ قاسٍ وسيرتقي إلى مستوى آخر، إذا كانتْ الحركات المتناغمة تتضمّن نشاطاً عضليّاً قاسيّاً، فإنّ عَتَبَاتِ الألم ترتفع حقّاً، قارَنَتْ تجربة طليعيَّة جديدة في جامعة أوكسفورد بين المجذّفين الذين يعملون بتناغم معاً وبين الذين يعملون وحدهم على آلات مُحاكاة التجذيف، وحين تمّ التحكّم بالتجربة بالنسبة إلى مقدار العَمَل المُنتَج، أصبح من الواضح أنَّ الفرد الذي يجذّف مع الآخرين بمستوى الإنتاج نفسه لديه عَتَبَة ألم أعلى ممّا كانت عليه حين عمل الفرد بالقَدر نفسه من مستوى الإنتاج بمفرده، يرتقع مستوى الأندورفين بالتناغم مع نشاط المجموعة، ونحن نعرف أنّ الأندورفينات تعَزّز الروابط الاجتماعيَّة.

خُذْ على سبيل المثال حادثة وودستوك، وهي لحظةٌ حاسمةٌ ليس فقط بالنسبة إلى الأشخاص الذين كانوا موجودين هناك، بل بالنسبة إلى جيلٍ كامل. هذا الحَدَث جديرٌ بالملاحظة بسبب افتقاره للعنف والصراع، وجماهير الناس المحتشدين والمتكاتفين في ظلّ ظروف معادية، يعملون معاً، ويحتفلون بالشباب عن طريق الموسيقا والرقص والجنس والصداقة الحميمة، و -نعم- المخدرات والعقاقير التي تغيّر الحالات العقليَّة؛ إنَّها مجرَّد مكمّلات للكيمياء الدماغيَّة التي كان قد أثارها جَوّ التلاحم والتناغم.

إنّنا نرى قوّة الترابط للطقوس الدينيَّة في نشاط أمريكيّ فعّال ومنتشر جداً في كلّ مكان وهو سباق المدارس الثانويَّة، وهدفه توحيد الطلاب جميعهم لمواجهة المنافسين.

سِحرُ اللمسة

على ما يبدو تقضي الرئيسيات وقتاً طويلاً في تنظيف بعضها البعض، ربّما لأسباب تتجاوز

الغاية الصحيَّة أو التخلّص من الطفيليّات؛ إذ تشير الأدلّة الآن أنّ اللمسَ أو التلامس يحفّز إفرار مادّة الأوكسيتوسين لإنشاء روابط اجتماعيَّة حميميَّة، ثمّ الإندورفين لتعزيزها.

إذا عَرَضتَ على امرأة مشهَداً مُهَدّداً وهي لا تُمسِك بيد أحد، فإنَّ اللوزةَ المخّيّة، وهي ذلك الجزء من الدماغ المسؤول عن التحكّم بالخوف، ستبرق؛ إنّها خائفة. أمّا إذا أمسَكَتْ بِيد شخصٍ غريب، فإنّ شدّةَ الخوف ستخفّ إلى حَدٍّ ما، أمّا إذا كانت مُمسكةٌ بيَد شريكها، فستَخفّ حِدّة الخوف أكثر: والأمر الأكثر لَفتاً للانتباه هو أنَّ درجةَ تهدئة يَد الشريك للخوف تتناسب طرديّاً مع كيفيَّة تقييم المرأة للعلاقة التي تربطها بشريكها، فالشراكة المُستَقرّة والجيّدة تُهدّئ الخوف أكثر من العلاقة المُزعزَعَة.

مع اللمس أو التلامس، تسترخي مناطق الفَصّ الجَبهيّ من دماغنا المسؤولة عن تنظيم المشاعر وتسمح لنا بالتركيز على حَلّ المشكلات التي نواجهها. يعالِجُ الدماغُ لَمسَة داعِمَة من شخصٍ مُحِبٍّ أو شريكٍ عزيزٍ كإشارة مشاركة في حَمل العِبء، إنَّ البشرَ هم أكثر أنواع الرئيسيات تعاوناً وتعاضداً، ويساعد اللمس في بناء علاقات أفضل لحَلّ المشكلات العابرة لأدمغتنا وأدمغة حُلَفائنا وشركائنا.

يُظهِرُ جزء آخر من البحث أنّ فِرَقَ كرة السلّة الأكثر تلامساً تحقّق نتائج أفضل، كلّ صفقات الأيدي ببعضها، والتربيت على الظهر، وصدم الصدور ببعضها، وصفعات المؤخّرة، والتلامُس بعد تسديد ضربة ناجحة أو بين الضربات الخائبة تتمّ ترجمتها إلى إشارات لتعزيز النواقل العصبيَّة التي تُعَزّز مشاعر التعاون والتعاضد والتضامن والتماسك بين أفراد الفريق.

بمجرّد أن تعلّم أسلافنا -ربّما من دون قصد- إثارة الكيمياء التي تعزّز الثقة والحبّ والتعاون ونكران الذّات، لَم يَعُدْ هناك مجال للعودة إلى الوراء، حتماً لقد أدّت تلك التفاعلات الكيميائيَّة القوية بشكلٍ لا يصدّق إلى شحن الآليّات المعرفيَّة التي تَسمَح بالاعتقاد بالكائنات الخارقة للطبيعة، ومن هنا انطلق الدين.

تجربةٌ صغيرةٌ

جرِّبْ الاقتراح التالي: فكّر في شخصٍ ما تحبّه أو تَهواه، وفكّر في مشاعرك تجاه هذا الشخص، الآن قُمْ بتقييم موجَز لحالتكَ العاطفيَّة في هذه اللحظة، ثمّ اقرِصْ منطقة معيّنة من جلدك حتى تؤلمك.

بمجرّد إجراء هذه العمليّات القياسيَّة الثلاث، قِفْ وَرَدّد أغنيةً بينما تتأرجح مع إيقاعها ذهاباً وإياباً، وتحرّك مع إيقاع صوتك، وإذا كان هناك شخصٌ ما مَعَك، ضَعَا ذراعيكما حول كَتِفَي بعضكما البعض وتَمايلا معاً وكأنّكما تغنّيان معاً، عندما تنتهي، وعندما يزول أيّ شعور غريب بالحَرَج، أعِدْ إجراء القياسات الثلاثة، راقب مستوى عَتَبَة الألم عندما تقرص جلدك، كيف تشعر حيال ذلك الشخص، ما هو شعورك تجاه نفسك؟ (قد تتجاهل ردّة فعل الجار الذي شاهَدَ ما تفعله للتوّ من خلال نافذتك).

حين أفعل ذلك مع الجمهور، يُبلِغَني الناس عن تغييرات إيجابيَّة وفق عدّة معايير (تخيّل أنَّ جماهيرَ الملحدين يردّدون أربعة مقاطع من أنشودة «أيّتها النعمةُ الرائعة *Amazing Grace*»)، في هذا التمرين البسيط سوف تختبر بعض التغييرات الكيميائيَّة العصبيَّة بفضل الغناء واللمس والحركات الإيقاعيَّة، وذلك بعد لحظات قليلة فقط، فتخيّل القيام بذلك طوال الليل في حقول لسافانا بإفريقيا أو في المناطق النائية بأستراليا.

إذا ذَهَبتَ في أيّ وقتٍ مضى إلى حفلة روك، حيث يصطفّ المستمعون ويتأرجحون ويولِعون القدّاحات، أو الهواتف المحمولة كما شاع مؤخّراً، ثمّ غادرتَ الحفلة وأنتَ تَنتابكَ مشاعر البهجة والمتعة والتجدّد، فقد جَرّبتَ فعلياً قوّة الطقس وأثر التلامس والغناء والرقص.

إنَّ الطقوسَ هي بمثابة استعراض «لجدارة شريك مُحتَمَل للتزاوج معه»، وهذا يمسّ جانبين آخرين من إنسانيّتنا يستغلّهما الدينُ أيّما استغلال.

الحبُّ الرومانسيُّ

إنَّ علاقاتنا الرومانسيَّة تخدمها تغييرات وتعديلات معيّنة في دماغنا، والرغبة الجنسيَّة تضعنا داخل الملعب، والحبّ الرومانسيّ يحلّ مشكلة الالتزام بشخصٍ واحد، وغالباً ما يَلعَب الدين على هذا المفتاح ويخلق علاقات حُبّ، وينعكس ذلك في قطع وعود للشهداء الانتحاريين من المسلمين بفتيات عذراوات في الجنّة، وقد قال الشيخ ياسين، المرشد الروحيّ لحماس أنّه من المقبول أن تكونَ النساء انتحاريّات، وخاصّةً إذا كُنَّ عازبات، لأنّهُنّ يُصبحنَ أجمل حتى من الحوريات الاثنتين والسبعين... ويَنَلنَ أزواجاً طاهرين في الجنّة. إنّ الوعدَ باثنتين وسبعين حوريّة للانتحاريّ الذكر ربّما يكون خِداعاً وترغيباً على أساس الرغبة الجنسيَّة أكثر من كونه حُبّاً رومانسيّاً، مستفيداً من الرغبة الجنسيَّة التي لا تُشبَع عند الذكور والتي تدور حول الشابّات اليافعات العذراوات.

يتمّ استغلال قدرات الحُبّ الرومانسيّ على نطاقٍ واسعٍ في الدين، خُذْ بعين الاعتبار رسائل الأم تيريزا المنشورة مؤخّراً، والتي تتحدّث فيها عن زواجها من المسيح، في الواقع، وخلال العصور الوسطى، كانت مَراسم تكريس الراهبات -في الأساس- حَفَلات زواج مكتملة المهور الكنسية، وحتى يومنا هذا، يطلق العديد من الراهبات على أنفسِهنّ لقب «عَرائس المسيح»، وبَعضُهُنّ تأخذن عهودهُنّ الأخيرة بفساتين الزفاف، وتحصلنَ على خواتم الزفاف وترتدينها.

في عَرضٍ كوميديّ للمسرح One-Woman Show بعنوان «التخلّي عن الرّبّ» *Letting go of God*، كشفتْ الممثّلةُ الكوميديَّةُ الأمريكيَّةُ جوليا سويني في عرض ليلة السبت لمرّة واحدة أنَّ لوحةَ المسيح قد ساعدتها على التخلّص من توقها الجنسيّ في شبابها [أي أنّها كانت تمارس العادة السريَّة].

إنَّ نظامَ الرابطة، الذي قمتُ بمناقشته في الفصل الثالث، متجذّرٌ بعُمق في علاقاتنا الرومانسيَّة، نحن نَنتقل من الرغبة والافتتان الرومانسيّ الشديد إلى الحبّ، حيث تعتم المرحلة الأخيرة على نظام الارتباط.

الاستثمارُ الأبويُّ

لا يتم تحديد اختلاف السلوك الأساسيّ بين الجنسين بالكامل عن طريق الجنس الوراثيّ، وبدلاً من ذلك يتمّ تحديده من خلال نمط سلوك يسمّى بالاستثمار الأبويّ *Parental Investment*، الذي يحدّد الجنس الذي له الحصّة الأكبر بالسمات الفيزيولوجيَّة التي تميّز النسل، وبالتالي أكبر استثمار عاطفيّ.

في معظم الأنواع الجنسيَّة، تمتلك الأنثى أكبر استثمار من بين أبوين، ففي بلدنا، على سبيل المثال، يتعيّن على المرأة أن تُنتج بويضة غنيّة بالمغذيات الحيويَّة، وتكون قابلة للحياة، ويستعدّ لها رحمها كلّ شهرٍ من حياتها الإنجابيَّة، وعند التلقيح تحمل هي الجنين في رحمها لمدّة تسعة أشهر، ثمّ تمرّ بعمليَّة الولادة التي يُحتَمَل أن تكونَ مُهَدّدة لحياة الأم وقاتلة، ثمّ تبدأ بِدَرّ الحليب لأشهر عديدة هذا إن لَمْ يَكُنْ لسنوات، إنَّ التكلفةَ الفيزيولوجيَّةَ الأساسيَّة هائلة، أمّا عند الذكور، فهي أقلّ كُلفة، إذ إنّها لا تتعدّى أكثر من بضعة ملايين من الحيوانات المنويَّة، وخمس دقائق.

هذا اختلاف كبير في درجة الاستثمار الأبويّ على المستوى الفيزيولوجيّ فقط، فبعد ولادة الطفل، حتى في الثقافات الغربيَّة «التقدّميَّة»، تقع المسؤوليَّة الأكبر لرعايته الجسديَّة والعاطفيَّة على عاتق الأم، قد يغيّر الآباء الحفّاظات بين حين وآخر، لكنّه ما يزال عَمَل الأم الأساسيّ.

من الناحية السلوكيَّة، إنَّ الجنسَ الذي يتمتّع بأكبر قَدرٍ من الاستثمار الأبويّ وَقفٌ على مَن تختاره هي -وهي عادةً التي تختار- للتزاوج معه؛ إنّها خطوة تَحُدّ من معدّل التكاثر، إذ يجب على الجنس الأقلّ استثماراً أبوياً بين الجنسين، وعادةً ما يكون الذكر، أن ينافسَ بضراوة مع ذكور آخرين من أجل الوصول إلى الأنثى ولضمان بقاء واستمراريّة حمضه النوويّ.

عند البشر، يبدو أنَّ أهميَّةَ المرأة القائمة على أساس بيولوجيّ ودورها في الاختيار

كان بمنزلـة إهانـة للمـرأة وصفعـة موجِعَـة مـن الذكـر، الـذي يبتكـر عـادةً وباسـتمرار طُرُقـاً للسـيطرة عـلى تكاثـر الإنـاث، وتشـمل التكتيـكات كلّ شيء مـن تعـدّد الزوجـات إلى الإصرار عـلى ارتـداء المـرأة للنقـاب مـن رأسـها إلى أخمَـص قدميهـا، وحتّى ممارسـات أكثـر وحشـيَّة وهمجيَّـة مثل خِتان الإنـاث المتمثّـل في عمليَّة اسـتئصال البَظْـر والتبتيك/ أو تشـويه الأعضـاء التناسـليَّة للمرأة.

في بعض الحروب الأهليَّة التي تقوم أحياناً على أساس دينيّ أو طائفيّ، يُظهِرُ الرجالُ انتصارَهم على الأعداء من خلال اغتصاب نسائهم وسَبيهنّ، بينما يُجبَرُ المهزومون على المشاهدة بصَمتٍ وذُل، وهذا يُعتبَر إهانة للرجل أكثر من كونه إهانة للمرأة التي، مع ذلك، ستوصَم وصمة عار دائمة تستمرّ طوال حياتها، حتى بين أقاربها، والمصير المُخزي نفسه قد يصيب أيّ نَسلٍ تُنجِبه، ويبدو أنّ المعتقدَ الدينيَّ عامِلٌ مُهمّ في ثقافتنا القائمة على الزواج الأحاديّ، الذي يؤدّي بحكم تعريفه إلى مزيد من المنافسة بين الجنسين لتأمين شريك مناسب، خُذْ على سبيل المثال حفل الزواج المسيحيّ التقليديّ: ((ما جَمَعَهُ الرّبّ معاً، لا يمكن أن يفرّقه إنسان)).

أظهرتْ دراسةٌ أجرِيَت في عام 2009 على طلاب جامعيين في ولاية أريزونا أنّ كلاً من الرجال والنساء بدوا كأنّ لديهم زيادة في المشاعر الدينيَّة عند عَرض صورة لأشخاص جذّابين ووُسَماء من جنسهم، وليس -كما تعتقد- أعضاء جذّابين من الجنس الآخر، وهكذا، عندما تدور المنافسة بين الشركاء المُحتَملين، يلعب الدين دوره.

معظم الأديان منشغلة بالجنس، وهذا بحَدّ ذاته يقدّم دليلاً قوياً على أنّ الدين من صُنعِ البشر أنفسهم.

حتـى هـذه النقطـة وضعنـا اللبنـات الأساسـيَّة النفسـيَّة للاعتقـاد الدينـيّ والطقـوس، كيـف أنّهـا نتـاج ثانـويّ للآليّـات المعرفيَّـة التكيفيَّـة، لكنّنـا نمتلـك الآن أيضـاً أدلّـةً مـن جلسـات التصويـر الشـعاعيّ لأدمغتنـا، دعونـا الآن نُلقـي نظرة عـلى ما يمكـن رؤيته عبر تلـك النافـذة إلى العقـل.

الفصلُ الثامنُ (ملاحظاتٌ مُكمِّلَة)

كتاب باربرا إهرنريتش «الرقصُ في الشوارع: تاريخُ الفرحِ الجماعيِّ» Barbara Ehrenreich's, *Dancing in the Streets: A History of Collective Joy* (New York: Henry Holt, 2006) كتابٌ ممتعٌ وغنِيٌّ بالمعلومات، ونحن نعتقد أنّ إحدى الوظائف الأساسيَّة للرقص كانتْ تتمثّل في إخافة الحيوانات المفترسة أثناء الليل، كما أنَّ ملاحظتها تشكّل تعليقاً محفّزاً للفكر، إذ تقول إنّ العديدَ من لوحات الكهوف تمثّل مجموعات في حالة رقص طقسيّ، ومع ذلك ليس لدينا لوحة واحدة تصوّر اثنين جالسين يستمتعان بحديث مع بعضهما.

أحدُ علماء الأعصاب المفضّلين بالنسبة إليّ هو باري جاكوبس في قسم علم النفس بجامعة برينستون، مقدّمة لطبعة عن السيروتونين في مقالته «السيروتونين والنشاط الحركيّ والاضطرابات المرتبطة بالاكتئاب» Barry Jacobs, «*Serotonin, Motor Activity and Depressing-Related Disorders*» (American Scientist 82 (1994):456–463). وبالنسبة إلى القارئ الفضوليّ، تشكّل كتب ستيفن ستال مقدّمة رائعة للكيمياء العصبيَّة وعلم الأدوية النفسيَّة، وهي مُعَدّة بحيث يمكن للقارئ الاستدلال بالرسوم التوضيحيَّة التي تبدأ من أساسيَّات علم الكيمياء العصبيَّة وتأخذك في رحلة إلى عالم العقاقير المستخدمة في علاج العقل Stephen Stahl's, Stahl's, *Essential Psychopharmacology: Neuroscientific Basis and Practical Applications*, 3rd ed.(New York: Cambridge University Press, 2008).

أظهر العمل الأخير كيف أنّ عمليَّةَ التحضير الدينيّ أو البرمجة الدينيَّة قد زادت من حدّة العقوبة المُنزَلَة بحقّ أنماط السلوك الجائر أو المُخالف، الذي قام به ريان ماكاي، وتشارلز إيفرسون، وهارفي وايتهاوس، وإرنست فير في عملهم المشترك «غضب الرب: العقوبات والجزاء الإلهيّ».

Ryan McKay, Charles Efferson, Harvey Whitehouse, and Ernst Fehr, «*Wrath of God: Religious Primes and Punishment,*» Proceedings of the Royal Society B, November 24, 2010, http://rspb.royalsocietypublishing.org/content/early/2010/11/17/rspb.2010.2125.abstract?papetoc

أخبرنا موريس أبري، محلّل نفسيّ وُلِدَ ونشأ في إفريقيا، القصّة التالية: ((كان السيد كولمان، مدير كنيستنا الميثوديَّة/ المنهجيَّة في سالت بون بغانا، غرب إفريقيا، عازف الأرغن لدينا أيضاً، في إحدى المرّات اقترب بِفَزَع ورُعب من زملائي في المدرسة المتوسّطة الميثوديَّة ووبّخَهُم بشدّة خلال فترة الاستراحة لأنّهم كانوا متحلّقين حول شجرة وينشدون، صارخاً فيهم: «توقّفوا أيّها الأولاد! ألا تعلمون أنّ هذه هي الطريقة التي تخلَق بها الآلهة؟)) لقد ذُهِلَ الأولاد، وصُدِموا في الحقيقة، لكنّهم ضحكوا في الوقت نفسه لقدرتهم على خلق آلهة من خلال ممارستهم لعبة بسيطة حول الشجرة Rodney Needham, «*Percussion and Transition,*» Man 2 (1967):606-614.

يناقش نيكولاس ويد في كتابه «غريزة الإيمان: كيف تطوّر الدين ولماذا يستمرّ؟» Nicholas Wade, in *The Faith Instinct: How Religion Evolved and Why It Endures* (New York: Penguin Press, 2009) التشابه الكبير بين الديانات الثلاث للكونغ سان، وسكّان جزر أندامان، وسكّان أستراليا الأصليين إضافةً إلى أصلهم المشترك والقريب مع أسلافنا الأوائل في إفريقيا، وعلى الرَّغم من أنّني لا أتّفقُ مع وجهة نظره بأنّ الدينَ هو تكيّف يتمّ اختياره من قبل الجماعة، إلا أنّني مدينٌ له ولأفكاره.

قرأتُ وصفةً لدياناتهم القائمة على الغناء والرقص والانتشاء، والصلة بين الديانات الأولى وكيف استخدم أسلافنا الكيمياء العصبيَّة لترسيخ الأديان في أدمغتهم.

أشار روبرت دونبار في ورقته «نحن نؤمن» Robin Dunbar's «*We Believe,*» New Scientist 189 (2006):30-33 إلى علاقة الإندورفين بالطبيعة المُجهِدَة

جسديّاً لمعظم الطقوس الدينيّة، وأطروحتي هي محاولة أشمَل وأوسع لربط الإندورفينات، والأوكسيتوسين والناقلات العصبيّة الأحاديّة الأمين بأصول الدين.

تتضمنُ مراجعة دانييل دينيت لمقال وولتر بوركيت «خلق المقدّس: مسارات علم الأحياء في الديانات المبكّرة» ضمن كتاب بعنوان « تقدير النعمة: ما الفائدة التطوّريّة لله؟» Walter Burkett's, Creation of the Sacred: Tracks of Biology in Early Religions titled «*Appraising Grace: What Evolutionary Good is God?*» Sciences (January–February 1997):39–44 وصفاً ممتازاً لاستراتيجيّة الكَهَنَة حين يَزعمون أنّهم مجرّد رُسُل.

بالنسبة إلى النقاش حول الموسيقا كمُنتَج ثانويّ أو عبارة عن سِمَة تكيفيّة مختارة جنسيّاً، انظر: كتاب بِنكر، «كيف تعمل العقول؟» *How the Mind Works* ,Pinker's . وكتاب جوفري ميللر «العقل التزاوجيّ: كيف شكّل الخَيار الجنسيّ تطوّر الطبيعة البشريّة؟» Geoffrey Miller's, *The Mating Mind: How Sexual Choice Shaped the Evolution of Human Nature* (New York: Doubleday, 2000). وكتاب دانييل ليفيتين: «هذا هو دماغك بشأن الموسيقا: علم الهَوَس الإنسانيّ» Daniel Levitin's, *This Is Your Brain On Music: The Science of a Human Obsession* (New York: Dutton, 2006).

نشر سكوت ويلترموث وتشيب هيث تجارب مثيرة للاهتمام حول التناغم والتعاون حيث لا يتعيّن على الأشخاص القيام بتمارين بدنيّة شديدة لزيادة المشاعر التعاونيّة، بل عليهم التحرّك في تناغم وتناسق.

راجع: ورقة «التناغم والتعاون»، مجلّة العلوم النفسيّة *Synchrony and Cooperation*, «Psychological Science 20 (2009): 1–5.

ابتكر فريق روبن دونبار التجربة مع المجذّفين الذين يُظهِرون جهداً جماعيّاً، مع التحكّم في

نتائج العمل، ورفع مستوى الإندورفين وعتبة الألم.

Emma E. A. Cohen, Robin Ejsmond-Frey, Nicola Knight, and R. I. M. Dunbar, «*Rowers' High: Behavioral Synchrony Is Correlated with Elevated Pain Thresholds,*» Biology Letters, 2009, http://rsbl.royalsocietypublishing.org/content/6/1/106.full

كان جيمس كوان، عضو الهيئة التدريسيَّة في جامعة فيرجينيا، هو مَن أجرى التجربة البارعة والمُتقَنَة التي أُجرِيَت فيها للنساء اللواتي تعَرّضن لسيناريو الرعب عمليّات مسح للدماغ، وحسب الترتيب التالي: في البداية لم يَكُنّ يُمسِكنَ بأيدي أحد، ثم في المرحلة التالية أمسَكنَ بأيدي أشخاص غرباء، وفي المرحلة الأخيرة أمسَكنَ بأيدي شُرَكائِهن.

جيمس أ. كوان، وهيلاري س. شايفر، وريتشارد ج. ديفيدسون: «مَدّ يَد العَون: التنظيم الاجتماعي للاستجابة العصبيَّة للتعامل»، مجلّة علم النفس James A. Coan, Hillary S. Schaefer, and Richard J. Davidson, «*Lending a Hand: Social Regulation of the Neural Response to Treat,*» Psychological Science 17 (2006):1032–1039.

وكتب بنديكت كاري مقالاً رائعاً في صحيفة نيويورك تايمز في 22 فبراير 2010، «دليلٌ على أنّ اللمسات الخفيفة تعني الكثير» Benedict Carey in the New York Times on February 22, 2010, «*Evidence that Little Touches Do Mean So Much,*». يلخّص فيه بعض الأبحاث حول اللمس وتأثيره.

لقد حظيتُ بامتياز العمل من عالِمة الأنثروبولوجيا هيلين فيشر، التي أدّت أبحاثها إلى دراسة تشريحيَّة للحبّ، ويُلَخّص عملنا هذا الآثار الجانبيَّة الجنسيَّة الناتجة عن مضادات الاكتئاب المُعَزّزة للسيروتونين، البيولوجيا العصبيَّة للرغبة الجنسيَّة والحبّ الرومانسيّ، «الرغبة، والرومانسيَّة، والارتباط: هل الآثار الجانبيَّة لمضادات الاكتئاب المُعَزّزة للسيروتونين تهدّد

الحبّ الرومانسيّ والزواج والخصوبة؟»

Helen Fisher, «*Lust, Romance, Attachment: Do the Sexual Side Effects of Serotonin-Enhancing Antidepressants Jeopardize Romantic Love, Marriage, and Fertility?*» Evolutionary Cognitive Neuroscience, ed. Steven Platek (Cambridge, MA: MIT Press 2006)

يمكن الاطلاع على تصريحات الشيخ ياسين الراحل حول الانتحاريات من النساء في الفيلم الوثائقيّ لباربرا فيكتور «نساء انتحاريات» المُتاح على موقعها على شبكة الإنترنت، وهي موجودة في كتابها «جيش الورود: داخل عالم النساء الفلسطينيات الانتحاريات» Barbara Victor's documentary, *Women Suicide Bombers, available on her Web site, and are in her book, Army of Roses: Inside the World of Palestinian Women Suicide Bombers* (Emmaus, PA: Rodale, .2003)

يشيرُ صديقي روبرت كورنويل إلى أنّ الرهبان هُم أيضاً «عرائس للمسيح» كرّسوا أنفسهم له ولحبّه حصراً، وهناك صورة أخرى للزواج تتمثّل في المسيح كعريس للكنيسة، وفي نشيد الأنشاد، يُقال إنَّ صورةَ الزواج هي محبّة الرّبّ لبني إسرائيل إلى جانب الحبّ الزوجيّ بين شخصين من لحمٍ ودم طبعاً. كلُّ مسيحيّ هو عروس للمسيح، حتى الرجال قد يكونوا مؤهّلين لذلك، ويبدو أنّ المسيحيَّةَ قد أجازَتْ زواج المثليين لفترة طويلة.

تمّ تطوير مفهوم الاستثمار الأبويّ من قِبَل عالِم الأحياء اللامع روبرت تريفرس، الذي تمّت الإشارة إليه هنا لمفهومه عن خداع الذّات، في كتابه «الاستثمارُ الأبويّ والانتقاء الجنسيّ».

Robert Trivers, »Parental Investment and Sexual Selection,» in *Sexual Selection and the Descent of Man*, 1871–1971, ed. Bernard Campbell, 136–179 (Chicago, IL: Aldine, 1972)

للتعرّف أكثر إلى الممثّلة الكوميديّة جوليا سويني وعَرضها المتوفّر حالياً على أقراص DVD انظر: www.juliasweeney.com/letting-go-mini/

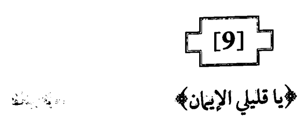
بالرّغم من الاضطهاد الدينيّ للمرأة، لماذا تتحمّل دائماً عبءَ عبوديّة الدين وتحمله على كاهلها وتنقله إلى الأجيال التالية؟ انظر: روبن كورنويل «لماذا تتعلّق النساء بالدين؟ وجهة نظر تطوريّة»

Robin Cornwell's. «*Why Women Are Bound to Religion: An Evolutionary Perspective,*»

http://richarddawkins.net/articles/3609

تُظهِرُ الدراسةُ التي أجرِيَت عام 2009 لطلاب جامعيين في أريزونا أنَّ المشاعر الدينيَّةَ زادتْ كجزء من المنافسة الجنسيَّة بين الجنسين أجراها فريق دوغلاس كينريك، يكسين جي. لي، وآدم ب. كوهين، وجيسون ويدن، في ورقتهم البحثيَّة: «المنافسون على التزاوج يزيدون من حدّة التشدّد في المعتقدات الدينيَّة».

Yexin J. Li, Adam B. Cohen, Jason Weeden, and Douglas T. Kenrick, «*Mating Competitors Increase Religious Beliefs,*» Journal of Experimental Social Psychology 46 (2010):428–431



﴿يا قليلي الإيمان﴾

اكتشافُ الدليلِ الفيزيائيّ/ الماديّ على الله (الآلهة) بوصفه نتيجةً ثانويَّة

((ما أهميَّةُ المستقبلِ بالنسبة إلى الحاضر حين يكون المرءُ محاطاً بالأطفال)) [تشارلز داروين].

قد تبدو كلمة «مُنتَج ثانويّ» تافهة، كما لو كانت تعني الضعف أو عدم الأهميَّة، على العكس تماماً، فالقراءة والكتابة – على سبيل المثال- هُما مُنتَجان ثانويان ثقافيان للتكيّفات المُصَمّمة أصلاً لأغراض أخرى.

نحن لا نمتلك وحدات للقراءة والكتابة في أدمغتنا، ما نملكه هو الرؤية، واللغة المنطوقة، والتفكير المجرّد الرمزيّ، والحركة الميكانيكيَّة الدقيقة لأيدينا، جنباً إلى جنب مع العديد من التعديلات الأخرى المُصّمّمة في الأصل لأغراض أخرى، وقد اجتمعت كلّ هذه التعديلات معاً حين ابتكر البشر القراءة والكتابة؛ هما أهمّ ابتكار ثقافيّ حيويّ لجنسنا البشريّ.

وبالمثل من المحتمل أن تكونَ الموسيقا نتاجاً ثانوياً للغة المنطوقة، مع حروف العلّة الساكنة

التي تمّ وضعها وفق إيقاع معيّن، في الأصل على إيقاع ضربات القلب، ولتقييم قدرة هذا المُنتَج الثانويّ الثقافيّ على تحريكنا، ما علينا سوى الاستماع إلى مقطوعة موسيقيّة مفضّلة، وخاصّةً تلك التي يمكن أن تثيرَ فينا ذكريات عزيزة.

الدين قوّة جبّارة وفعّالة عملتْ على تشكيل التاريخ والسلوك الفرديّ بما لا يُقاس، وتسميته بـ «المنتج الثانويّ» لا تقلّل من قوّته الواضحة ودوره البيّن، وخاصة حين تدعم هذا المذهب أحدث الدراسات والأبحاث الجادّة والصارمة، توجد أدلّة تجريبيّة كاشفة لتفسير قوّة الدين الفعّالة وتأثيره القويّ علينا.

كما تقول لون فرانك، عالمة الأعصاب والصحفيّة الدنماركيّة: ((إنَّ المقدّس موضعه بين الأذنين))، فباستخدام التقنيات الحديثة للتصوير الشعاعيّ وعلم الأعصاب، هذا ما تمّ الكشف عنه وتأكيده بالضبط.

من المحتمل أن يكونَ مايكل بيرسنجر هو العالِم الأشهر في هذا المجال الجديد لأبحاث الدماغ والدين، وهو عالِم نفسيّ في جامعة لورنتيان بكندا، ومنذ الثمانينيات، جرّب بيرسنجر ما يُعرَف بـــــ «خوذة الله» God Helmet، حيث يتمّ وضع الأشخاص في غرفة مظلمة وهادئة، وحَجب الرؤية والإدراك الصوتيّ عنهم، ثمّ توضع خوذة لتحفيز الفَصّ الصّدغيّ مغناطيسياً على الرأس.

أشارَ الأشخاص الكُثُر الذين خضعوا للتجربة إلى وجود كيانٍ «آخَر»، ونظراً لتاريخهم الثقافيّ والشخصيّ، يمكن تفسير هذا «الوجود المحسوس للآخر» من قِبَل الشخص الذي يرتدي الخوذة على أنّه شخصيّة دينيّة خارقة للطبيعة، وقد أبلَغَت النساء عن شعورهِنّ بهذا الحضور أكثر من الرجال.

يجادل بيرسنجر بأنّنا لا نملك إحساساً واحداً ثابتاً أو جزءاً واحداً من الدماغ ينبثق منه، بل هناك عدّة مناطق من الدماغ تساهم في تجربتنا الواعية لأنفسنا.

في حالة اليقظة التي نعرفها، يتحكّم الجانب الأيسر من الدماغ باللغة ويكون هو المسيطر

عموماً، وفي حالاتٍ أخرى، كتلك الحالات التي تتّسم بالخوف، والهَلَع، والاكتئاب، والأزمات الشخصيَّة، وقلّة الأكسجين، وانخفاض نسبة السكّر في الدم، أو الخضوع لتجربة «خوذة الله»، حين يتمّ تحفيز المنطقة الصدغيَّة اليمنى، فإنّ هذا الإحساسَ الإضافيَّ يتسلّل إلى الوعي ويُستَشعَر به كأنّه كيانٌ «آخَر».

إنَّ هذا التحفيزَ للتجارب الدينيَّة من خلال الفَصّ الصدغيّ ليس مجرّد شذوذ أكاديميّ أو ناتج عن قوّة المغنطة داخل المختبر، ومنطقة الفَصّ الصدغيّ مهمّةٌ جداً للكلام، كما أنّها شائعةٌ في التجارب الدينيَّة كسماع صوت الله، ويمكن للمرء أن يُخطئ في نَسب صوته الداخليّ إلى «آخَر» خارجيّ، وقد تمّ توثيق الكثير من حالات المصابين بصَرَع الفَصّ الصّدغيّ التي تنتج عن الاضطرابات الكهربائيَّة في هذه المنطقة، إنَّ أصحابها مرّوا بتجارب دينيَّة، وإنّ التديّنَ المُفرط سِمَةٌ مُشتَرَكَةٌ بين جميع هؤلاء.

من المحتمل أنَّ القدّيسَ بولص كان يعاني من نوبة صَرَع حين «وَقَعَ مغشياً» وهو في طريقه إلى دمشق، ومن الممكن أيضاً -بل ومن المحتمل جداً- أن يكونَ بعض مؤسسي وزعماء الأديان المختلفة في العالم اليوم تتمّ معالجتهم من مرض «صَرَع الفَصّ الصدغي»، ويُعتقَد أنَّ الأم تيريزا من أفيلا، والكاتب الروسي فيودور دستويفسكي، ومارسيل بروست من بين آخرين كُثُر، كانوا يعانون من صَرَع الفَصّ الصدغيّ، والذي ربَّما يكون قد ساهَمَ في تركيزهم الشديد والمتطرّف على الجانب الروحيّ.

آندرو نيوبيرغ، دكتوراه في الطب، وطبيب أمراض باطنيَّة وأخصّائي أشعة في مستشفى جامعة توماس جيفرسون وكليّة الطبّ وأستاذ مساعد في قسم الدراسات الدينيَّة في جامعة بنسلفانيا، كان رائداً في مجال دراسة التصوير العصبيّ الشعاعيّ للراهبات اللاتي يدخلن في حالة صلاة، أو الرهبان في حالة تأمّل، أو الأعضاء من كنيسة العَنصَرَة وَهُم يتكلّمون بألسِنَة غريبة، والأفراد في حالات نشوة مختلفة.

يشيرُ عمله إلى أنَّ الحالاتِ العاطفيَّة التي يشعر فيها الفرد بالاتّحاد والاندماج مع الكون «تتوافق مع نشاط الفَصّ الجَبهيّ العالي والنشاط المنخفض في الفَصّ الجداري الأيسر للدماغ،

وهي منطقة مسؤولة عن دَمج المعلومات التي توجّهنا وترشدنا داخل بيئتنا، وتخبرنا هذه المنطقة عن حدود أجسادنا وامتدادها داخل العالَم، وأين تنتهي هذه الحدود ويبدأ العالَم».

إذا حجبتْ المُدخَلات الحسيَّة إلى تلك المنطقة من الدماغ عن طريق الصلاة المكثّفة أو التأمّل، أو الترديد البطيء، أو الألحان الرثائيَّة، وتعاويذ الطقوس الهمسيَّة، أو غيرها من التقنيات الأخرى، عندها يَعجَزُ الدماغ عن التميز بين الذات اللا ذات، وبين العالم الداخليّ والخارجيّ، وحين لا تدمج هذه المنطقة مثل هذه المعلومات من العالَم الخارجيّ، سيشعر الفرد بالاندماج والاتّحاد مع كلّ شيء.

من البدهيّ أنَّ هذه الدراسات تتضمّن استثناءات: أشخاص يَضعون خوذة الله، وراهبات، ومصابون بالصّرَع، وصوفيّون، وأعضاء من كنيسة العَنصَرَة، وآخرون على النقيض، فعلى سبيل المثال: حين يتكلّم أتباع كنيسة العَنصَرة، والوعّاظ المسيحيون البارزون بألسنة غريبة، أو يبربرون بلَهَجات وكلام غير مفهوم، يحدث العكس، ينخفض نشاط الفَصّ الصدغيّ، والذي يتوافق مع الشعور بفقدان السيطرة، ويترافق بنشاط عالٍ في الفَصّ الجداريّ، الذي يتوافق مع اختبار مكثّف للـذّات فيما يتعلّق بحضور إله، وهو شخصيَّة ارتباطيَّة.

فيما يتعلّق باستقصاءات التصوير الشعاعيّ العصبيّ الحديثة عند الأشخاص المتدينين وغير المتديّنين، «الأسس المعرفيَّة والعصبيَّة للاعتقاد الدينيّ» وهي دراسة نُشِرَت في ربيع عام 2009 من المعاهد الوطنيَّة للصّحّة من قِبَل ديميتريوس كابوجيانيس ومعه خمسة باحثين آخرين، تقدّم لنا أدلّة مذهلة لدعم نظريَّة الدين كَمُنتَج ثانويّ.

تمّت مراقبة أدمِغَة الخاضعين للتجربة باستخدام تقنية التصوير بالرنين المغناطيسيّ الوظيفيّ fMRI، بينما كان الباحثون يقرأون عليهم عبارات مختلفة حول الدين، طُلِبَ منهم الإيماء بالموافقة أو عدم الموافقة، وعلى الرَّغم من عَدَم وجود «مركز للإله» داخل الدماغ، إلا أنّ أدلّةَ التصوير العصبيّ حدّدَتْ مكان أو تَوَضّع المعتقدات الدينيَّة داخل شبكات الدماغ نفسها التي تعالج المقدرات لنظريَّة العقل والنيّة والعاطفة.

أظهَرَتْ مقارنةُ النتائج من كلّ من المشاركين في التجربة من المتديّنين وغير المتديّنين عدم وجود فَوارق في آليّات الدفاع المستخدمة لتقييم العبارات التي طَرَحَها عليهم العلماء، فالدين ليس وظيفة منفصلة، بل إنّه مُدمَجٌ ضمن شبكات الدماغ ذاتها المستخدمة في عمليَّة الإدراك الاجتماعيّ.

إنَّ الاعتقادَ الدينيَّ ليس ظاهرة فريدة من نوعها ***sui generis***، وتقدّم الدراسات والأبحاث دليلاً قوياً على أنَّ المعتقداتِ الدينيَّة تنخرط في دوائر دماغيَّة اجتماعيَّة وعادية وآليّات عقليَّة معروفة جيداً، كما أنَّ هذه الآليّات تتوسّط في الوظائف التكيفيَّة التي تمّ وصفها هنا.

استخدمتْ دراسة حديثة أخرى أجراها سام هاريس تقنية التصوير بالرنين المغناطيسيّ الوظيفيّ، وضمّت أيضاً كلاً من المؤمنين وغير المؤمنين حيث تمّ تقديم مقترحات دينيَّة وغير دينيَّة لهم، وقد أظهرت أدمغة المؤمنين نشاطاً في أجزاء تتعلّق بالهويَّة وبكيفيَّة رؤية الفرد وتقييمه لنفسه، بغضّ النظر عن المحتوى المقدّم لهم.

العصبوناتُ المرآتيَّة Mirror Neurons

اكتُشِفَتْ الخلايا العصبيَّة المرآتيَّة أو العصبونات المرآتيَّة، الموجودة في جميع أدمغتنا، ربَّما في العديد من المناطق المختلفة، عن طريق الصدفة من قبل باحثين كانوا يعملون على قردة المَكّاك في جامعة بارما خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين.

أظهَرَتْ الأبحاثُ اللاحقةُ أنّها نشطة عند البشر أيضاً، ويُعَدُّ اكتشافهم هذا أحد أهمّ النتائج الحديثة في مجال علم الأعصاب.

تتنشّط هذه الخلايا حين يقوم حيوانٌ بعملٍ ما ويُلاحظ حيوانٌ آخر ما فعله الحيوان السابق ثمّ يقوم بتقليد الإجراء نفسه فإنّ هذه الخلايا «تعكس» سلوك الآخر، كما لو أنَّ المراقبَ كان يؤدّي الإجراء نفسه، لذلك يصحّ هنا المَثَل القائل: ((قرد يرى... قرد يفعَل)).

لنوضّح ذلك بصورة أجلى، حين ترفع يَدَكَ اليمنى، تنشُط الخلايا العصبيَّة في الجانب الأيسر من دماغك، في المنطقة التي تتحكّم بحركة الذراع الأيمن، فإذا شاهَدتني أفعَل ذلك، فستُضيء الخلايا العصبيَّة نفسها، على الرَّغم من أنَّ ذراعك اليمنى ما تزال ساكنةً، إذا وَضَعتُ سكّيناً في يدي اليمنى، فإنّ مناطق إدراك الألم تَنشَط في دماغي الأيسر، وإذا رأيتني أفعَلُ ذلك، فإنّ عقلَكَ سيتفاعل بالطريقة نفسها.

لكنّكَ لستَ بحاجة للألم لتُثبتَ ذلك لنفسك، إذا شاهَدتَ شخصاً يَمُصُّ فصّاً من الليمون، فسوف تشعر بمذاق الليمون الحامض وسيمتلئ فمكَ باللعاب، تماماً كما لو كُنتَ تأكل الليمون بنفسك، أو حاوِل جاهداً ألا تتثاءب حين يتثاءَب أحدٌ أمامَكَ.

يُدرِك جامعو التبرّعات ذلك على نحوٍ ما، ويمكنهم سرد جميع الإحصائيَّات المتعلّقة بجوع الأطفال في العالم دون التأثير على المستمع العادي، ولكن إذا عَرَضوا على هذا الشخص صورة طفلٍ جائع، فسيغدو على الأرجح أكثر نزوعاً للتبرّع، أطلق زلزال هايتي عام 2010 تدفّقاً ماديَّاً هائلاً من التبرّعات من جميع أنحاء العالم بسبب الصور والقصص المروّعة التي انتشرت عبر وسائل الإعلام، يمكننا جميعاً أن نشعر بألم الخسارة والفقد واليأس، ولن تسمح لنا نِيَاط قلبنا بالاكتفاء بالجلوس وعدم القيام بشيء حيال ذلك.

كثيراً ما نسمع أنّه لولا الدين، سنكون بشراً غير أخلاقيين وغير مبدئيين.

إنَّ الخلايا العصبيَّةَ المرآتيَّة تدحض هذا الزّعم بقوة، نحن نَشعُرُ حرفياً بآلام الآخرين، وهذا يدفعنا إلى التعاطف، والشعور بالضيق، والرغبة في تقديم المساعدة.

إنَّ أدمغتنا أخلاقيَّةٌ في صميمها، وتستغلّ الأديان هذه الحقيقة، عن وعي أو بدون وعي، وتوظّفَها بطريقة يمكن أن تكونَ صادمة *Traumatizing*.

كم عدد الأطفال الذين شاهدوا أو تعرّضوا لصدمة مشاهدة عمليَّة صلب المسيح؟

يعتقد معظم المسيحيين أنّهم اعتادوا عليها، لكن الأدلّة تشير إلى أنّه في كلّ مرّة يشاهدونها، في مستوى معيّن، فإنّ الألمَ يستمرّ معهم، كما لو أنَّهم تمّ تسميرهم هُم على الصليب.

هذه الصورةُ هي مُتَلاعب قويّ جداً بقدراتنا الأخلاقيَّة الأساسيَّة.

استفاد ميل غيبسون، الممثّل والمخرج، الروميّ الكاثوليكيّ الشهير و«التقليديّ»، عموماً من هذا الميل في فيلمه الصادر عام 2004 بعنوان «آلام المسيح *The Passion of the Christ* » والذي يتّسم أيضاً بالعنف الجرافيكيّ المصوّر لدرجة أنّ بعضَ المسيحيين قد شَحِبوا من هول المشاهد، وقد اتُّهِم غيبسون بمعاداة السامية وإطالة أمَد العنف في الفيلم لغرض صريح يتمثّل في تقوية الاعتقاد الدينيّ، ونتج عن الفيلم فيلمان وثائقيان، ولَم يَزَل هناك موقع ويب نَشِط يجعل الفيلم متاحاً للجميع - مع مشاهد عُنفٍ إضافيَّة من الإصدار المسرحيّ للفيلم - وذلك كمادة تعليميَّة للكنائس.

يُقال إنَّ بعضَ المتديّنين المتحمّسين قد أظهروا على مدى حياتهم المسيحيَّة، ندبات جسديَّة في أيديهم [أي ندبات المسيح *Stigmata*]؛ العلامات الغامضة على أيديهم وأقدامهم وجانبهم كما كانت جروح المسيح أثناء صلبه، ويتم تصنيفهم عادةً على أنَّهم قدّيسون، ولكن من المرجّح أنّ عقلهم الباطن قد أدرَكَ تلك الصورة بقوّة وبصدمة رضيّة شديدة لدرجة أنّها ظهرتْ فعليّاً على أجسادهم، وهذا النوع من القوَّة الذهنيَّة غير معروف للعلم بَعد، ومن المُرَجّح أنَّهم تسبّبوا في جروح لأنفسهم أثناء وجودهم في حالة شبيهة بالهدوء، إمّا عن قصد وإمّا بغير قصد، بينما تقرأ هذا الكلام، هناك باحثون متخصّصون في المجال يواصلون تسخير آليّات وتقنيّات علم الأعصاب الحديث لاستكشاف الطريقة التي تولَد فيها أدمغتنا المعتقدات الدينيَّة وتعتنقها وتنشرها .

وسوف يبنون على هذا العمل الذي ذكرناه للتّوّ فرضياتهم اللاحقة ويقدّمون لنا يوماً ما تشريحاً عصبياً كاملاً للمعتقد الدينيّ في الدماغ، ويمكنكم المراهنة على ذلك.

الفصلُ التاسعُ (ملاحظاتٌ مُكَمّلَة)

لون فرانك، عالِمَة البيولوجيا العصبيَّة والصحفيَّة الدنماركيَّة، لديها كتاب لا يحظى بالكثير من التقدير والاهتمام بعنوان «مجال العقل: كيف تُغَيّرُ علوم العَقل عالَمَنا»

Lone Frank, «*Mindfield: How Brain Science Is Changing Our World*» (Oxford: One World Publications, 2009)، ويتضمّن فصلها الرائع عن علم الأعصاب المعرفيّ للدين على وصف حَيّ لزيارتها لمختبر مايكل بيرسنجر وتجربتها الخاصّة مع «خوذة الله».

إنَّ كلامي عن مايكل بيرسنجر وأندرو نيوبيرغ مستوحى من ورقتهما العلميَّة L. S. St-Pierre and Michael A. Persinger, «*Experimental Facilitation of the Sensed Presence Is Predicted by Specific Patterns of Applied Magnetic Fields Not by Suggestibility: Re-analyses of 19 Experiments*,» International Journal of Neuroscience 116 (2006):1079–1096. ومايكل بيرسنجر «هل أدمغتنا مُصَمّمَة لتجنّب تكذيب الإيمان بالله؟ دراسة تجريبيّة» Michael A. Persinger, «*Are Our Brains Structured to Avoid Refutations of the Belief in God? An Experimental Study*», (Religion 39 (2009): 34–42) وأندرو نيوبيرغ ومارك روبرت والدمان: «كيف يغيّر الله عقلك» Andrew Newberg and Mark Robert Waldman, *How God Changes Your Brain* (New York: Random House, 2009). وشارون بيغلي: «الدين والدماغ» Sharon Begley, «*Religion and the Brain,*» Newsweek, May 7, 2001. وجاك هيت: «هذا هو دماغك فيما يتعلّق بالله» Jack Hitt, «*This Is Your Brain on God,*» Wired 7, no. 11 (November 1999). وكونستانس هولدن: «ألسِنة حول العقل» Constance Holden, «*Tongues on the Mind,*» Science NOW, November 2, 2006.

وفي نهاية ورقته العلميَّة لعام 2009، يذكر د. بيرسنجر أنَّ الإيمانَ «بنوعٍ ما» من الآلهة يجب أن يكونَ ذا فائدة تكيفيَّة لم يُدرَسْ من خلال المنهج العلميّ الصارم بعد، إنَّ الافتراضَ

المتكرّر بأنَّ الانتماءَ إلى منظّمة من المنظّمات الدينيَّة التي لا تُحصى، وكلُّ واحدةٍ منها تؤكّد بشكلٍ قاطعٍ على صحّة وصوابية هذا الافتراض، مفيدٌ للإنسانية لم يتمّ التحقّق منه علمياً أبداً.

كان تاريخُ البشريَّة مليئاً بحالات تهميش الناس ونبذهم ونفيهم واضطهادهم وحَرقهم وقتلهم لمجرّد أنّهم لم يؤمنوا بالإله نفسه، وإلى أن يتمّ عَزل وتحديد العمليّات العصبيَّة المعرفيَّة والمسارات التشريحيَّة العصبيَّة المتعدّدة وفَهمَها بالكامل والتحكّم بها، فإنّنا يجب اعتبار الإيمان بالله مصدر جميع السلوكيّات البشريَّة التي يُحتَمَل أن تكونَ مُهَدّدَة وخَطيرة.

إنَّ دراسةَ كابوجيانيس وزملائه للتصوير العصبيّ للمؤمنين وغير المؤمنين موجودةٌ ضمنَ ورقةٍ بحثيَّة Dimitrios Kapogiannis, Aron K. Barbey, Michael Su, Giovanna Zamboni, Frank Krueger, and Jordan Grafman, «*Cognitive and Neural Foundations of Religious Belief*,» Proceedings of the National Academy of Science 106 (2009): 4876–4881.

هذه الدراسةُ تمثّل انتصاراً للعلم على السياسة؛ إنّها تخرج من قلب المعاهد الوطنيَّة للصحة خلال السنوات الأخيرة من إدارة الرئيس جورج دبليو. بوش المحافظة، ويتساءل المرء إذا كان سيتمّ نشرها والاعتراف بها لو كانتْ نتائج الانتخابات الرئاسيَّة لعام 2008 مختلفة.

إنَّ كتبَ سام هاريس: «نهاية الإيمان»، و«رسالة إلى أمّة مسيحيَّة»، و«المشهد الأخلاقيّ» قد أكسَبَته المزيد من الاهتمام بوصفه عدوّاً واضحاً للدين، وهو أيضاً عالِمُ أعصابٍ شهير، وقد نُشِرَ عمله عن التصوير العصبيّ للمؤمنين وغير المؤمنين في عام 2009.

Sam Harris, Jonas T. Kaplan, Ashley Curiel, Susan Y. Bookheimer, Marco Jacoboni, and Mark S. Cohen, «*The Neural Correlates of Religious and Nonreligious Belief*,» PLoS One 4, no. 10: e7272

البيئة، والتقوى، والطفيليات: عملان علميان آخران مثيران للاهتمام أضيفا إلى الأدبيّات حول الدين وتأثيره على الإنسان بطرق ربّما لَم تَكُنْ في الحسبان من قَبل.

في استطلاع للرأي عام 2005 على البيانات الأنثروبولوجيّة عبر الثقافات البدائيّة الأصليّة، استخرج روبرت إم. سابولسكي، أستاذ علم الأحياء وعلم الأعصاب في جامعة ستانفورد، معلومات تُثبِتُ أنَّ الدينَ والأفكار الدينيّة يمكنها في الواقع أن تتشكّلَ من خلال الجغرافيا والبيئة.

من الناحية التاريخيّة، كان سكّانُ الغابات المَطيرة، مع وجود وفرة طبيعيّة في كلّ شيء من حولهم، يميلون إلى العقيدة التعدّديّة، ويؤمنون بالأرواح القائمة على الطبيعة، وأقلّ ميلاً إلى الاعتقاد بأنّ الآلهة تتدخّل في حياتهم وشؤونهم الخاصّة، أمّا سكّان الصحراء، فيعيشون في بيئة رتيبة وقاسية لا تَرحَم، ومن المرَجّح أن يؤمنوا بإلهٍ واحد، قاسٍ وغيور، وكارهٍ للنساء، وتَدَخّلي، ولأسباب عديدة مختلفة، كان إله سكّان الصحراء هو الذي بَقيَ وساد وانتقلَت عبادته إلى العديد من البشر.

راجع: كتاب «مونكيلوف: ومقالات أخرى عن حياتنا كحيوانات» Robert M. Sapolsky, »*Monkeyluv:And Other Essays on Our Lives as Animals* (New York: Scribner, 2005).

أظهَرَتْ دراسةٌ أُجرِيَت عام 2008 في جامعة نيوميكسيكو أنَّ الأمراض المعدية، وتحديداً التي تنتقل بين البشر على عكس تلك التي تنتقل بين الحيوانات، تؤثّر على تديّن البشر.

باختصار، يمكن أن يشكّلَ الدينُ خَطَراً على الصحّة، لماذا؟

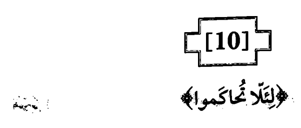
الأديان آليّات تعزيز جماعيّة، أنا وَمَنْ مَعي، ضدّكَ أنتَ وَمَنْ مَعَك.

تلك المناطق من العالَمَ التي تعاني من أكبر عبءٍ من الأمراض المعدية بين البشر هي الأكثر تديّناً، كوري إل. فينشر وراندي ثورنهيل: «مجتمع متنوّع، وتشتّت محدود، ومَرَض مُعدٍ، وأصل النمط العالميّ للتنوّع الديني».

Corey L. Fincher and Randy Thornhill, «*Assortative Sociality, Limited Dispersal, Infectious Disease and the Genesis of the Global Pattern of Religion Diversity,*» Proceedings of the Royal Society B 275 (2008): 2587–2594

أمّا كَون أدمغتنا أخلاقيَّة بالفطرة ومن حيث التصميم فهي فكرة مستوحاة من مقال جوشوا غرين: «ذباب الفاكهة للعقل الدينيّ» ضمن كتاب «ماذا بعد؟ تأمّلات حول مستقبل العلم».

Joshua Greene's essay «*Fruit Flies of the Moral Mind,*» in *What's Next: Dispatches on the Future of Science*, ed. Max Brockman



[10]

﴿لِئَلّا تُحاكَموا﴾

تثقيفُ عقولنا

((إنَّ الجهلَ في كثيرٍ من الأحيان يولّدُ الثقةَ بالنفس أكثر من المعرفة: فأولئك الذين يعرفون القليل، وليس الذين يعرفون الكثير، هم الذين يؤكّدون بشكلٍ إيجابيّ أنّ هذه المشكلة أو تلك لن يتم حلّها عن طريق العلم)) [تشارلز داروين].

في عام 1918، بدأ وليام جينينغز برايان، وزيرُ الخارجيَّة السابق والمُرَشّح الرئاسيّ، ما أسماه دودلي مالون بـ»صراع ضدّ نظريَّة التطوّر حتى الموت»، وقد بَلَغَتْ المعركةُ قمّتها في صيف عام 1925 بمحاكمة سكوبس الشهيرة في مدينة دايتون بولاية تينيسي، لكن لم تكُنْ نظريَّة التطوّر هي الطرف الخاسر في هذه المعركة، فقد دعا كلارنس دارو، محامي الدفاع الرئيس، برايان إلى المنصّة باعتباره شاهداً مناوئاً، ثمّ هَدَمَ بِحِرَفيَّة معتقدات برايان التوراتيَّة الحمقاء نقطةً تلو الأخرى، وهذه المحاكمة تُصَنّف كواحدة من الاستجوابات الكبرى في تاريخ القانون الأمريكيّ، كان على برايان أن يُدرك أنّه تعرّض للإذلال العَلَنيّ، وتوفّي بعد خمسة أيام من المحاكمة.

على الرَّغم من أنَّ جون سكوبس، الذي كان يُدَرّس نظريَّة التطور في مدرسة ثانويَّة، قد أُدينَ بانتهاك قانون بَتلَر بتينيسي، الذي يَمنَعُ صَراحَةً تدريس نظريَّة التطوّر في المدارس، تمّ سَحب الإدانة لاحقاً ولم تتمّ إعادة فتح القضيَّة؛ لذلك على الرغم من أنّ برايان قد انتصر في معركة المحاكمة، لكنّه لَمْ يَفُزْ في الحرب حتماً.

ومع ذلك، فإنَّ الحربَ الأوسع لَمْ تنتهِ بعد، ظَلّ قانون بَتلَر ساري المفعول لما يَقرب من أربعين عاماً، وظلّت القضايا القانونيَّة المتعلّقة بتدريس نظريَّة التطوّر خامدة حتى طَعَنَ مُدَرّسٌ آخر بالقانون بناءً على أساس التعديل الأوّل في عام 1967.

منذ منتصف الستينيات، كان هناك تسع عشرة عَقَبَة أمام تدريس نظريَّة التطور؛ اثنتان أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة، فقد حاول الكثيرون من اليمين الدينيّ المتطرّف إخراج نظريَّة التطوّر عن مسارها بالإصرار على أن يتمّ تدريس «علم» الخَلق والتكوين، ولا سيَّما آخر إصدار منه، التصميم الذكيّ، جنباً إلى جَنب مع نظريَّة التطوّر الداروينيّ، ولكن في كلّ مرّةٍ كانتْ تصل القضيَّة إلى نقطة حاسمة في نظامنا القانونيّ، وانتصرَ العِلمُ في النهاية.

مؤخّراً، في أواخر عام 2005 أصدر القاضي جون إي. جونز الثالث، قاضي مقاطعة بنسلفانيا الفدراليَّة، حُكماً ضدّ طلب تقديم نظريَّة التصميم الذكيّ كبديل عن نظريَّة التطوّر الداروينيّ في حصص علوم الصف التاسع، وفي قضيَّة كيتزميللر ضدّ مدرسة منطقة دوفر شَهِدَ كينيث ميللر -عالِمُ الأحياء بجامعة براون والكاثوليكيّ المتديّن- مؤيّداً النزاهة العلميَّة لنظريَّة التطور، مشيراً إلى عدم وجود أيّ تعارض بين الدين والعلم، وقد رَدّدَت كلماته الخطاب الأكثر شهرةً في محاكمة سكوبس وهو خطاب «الحريَّة الأكاديميَّة» الذي ألقاه دودلي مالون، المستشار المشارك لكلارنس دارو، الذي أشار إلى عدم وجود تعارض بين علم التطور والدين، بينما مَثّلَتْ قضيَّة دوفر انتصاراً عظيماً للعلم وتدريس العلوم، فقد أقَرّ القاضي جونز، في قرار مماثل بخلاف ذلك، يتوافق مع وجهة نظر ميللر ومالون، مشيراً بصراحة إلى هذا الغياب المُفتَرَض للصراع بين العلم والدين.

وبالرغم من عمليَّة التصويب السياسيّ المتمثّل في عَدَم وجود تضارب بين العلم والدين

فإنّ الضّجّة المستمرّة للمعارك في مجالس المدارس واللجان التعليميّة في جميع أنحاء الولايات المتحدة (ومؤخّراً في المملكة المتّحدة وكندا) أصبَحَت مُصِمّة للآذان، ولاشَكّ أنّ هناك صراعاً قديماً ومُحتَدِماً بين الدين والعلم.

على مدى قرون عديدة، قدّمَتْ العقيدةُ الدينيَّةُ ادّعاءات ومَزاعم حول أصل الكون ونشأته، وأصل الإنسان وطبيعته، وطبيعة العالَم، وقد دَحَضَ العلم ببطء وبشكل تدريجي، ولكن بشكلٍ قاطع، معظم هذه الادّعاءات والمزاعم، لكن بطريقة لا تَخلو من خطر وأذيّة، كما سيُخبرك جاليليو لو كان حَيّاً؛ إذ يُظهر البحث العلميّ الحقيقيّ عن الحقيقة أنّ الرجالَ والنساءَ في عالَم اليوم ما هُم إلا قردة إفريقيون، وآخر الهومينيد الباقين على قيد الحياة الإنسان العاقل.

وكما لاحظنا في الفصل الثالث، فحتّى داروين نفسه واجَهَ صعوبةً في التخلّي عن دينه، ولم يكُنْ لديه سوى جزء بسيط من الأدلّة التجريبيَّة التي يجب مُراعاتها مقارنَةً بما نعرفه الآن.

إنّ الآليّاتِ العقليَّةَ التي تندمجُ وتتّحدُ مع بعضها لتجعلنا عِرضَةً للمعتقد الدينيّ متجذّرةٌ ومتأصّلةٌ عميقاً في أدمغتنا، وحين يُضاف إلى هذه الآليّات آليَّة التلقين المجتمعيّ للأطفال، وتبدأ منذ الولادة غالباً، فإنّنا نواجه ما قد يكون بمنزلة المعركة النهائيَّة بين الإيمان غير المشكوك فيه والتقصّي الذكي كما قال جيري كوين، عالم أحياء تطوّري ومؤمن سابق، ((يُعتَبَرُ الإيمانُ فضيلةً في الدين، أمّا في العلم فهو رذيلة))

كما أنّه -كما يخبرك أيّ مؤمن سابق- من الأسهل بكثير تصديق مقولات الدين، وتقدّم الأديانُ مجموعةً من القواعد، وحين يتمّ دمجها مع جميع آلياتنا العقليَّة التكيفيَّة، فإنّها تلغي الحاجة إلى التفكير الجاد حول هذه المسألة، وفي إحصائيَّة لإحدى الكنائس عام 2010 وجد استطلاع للرأي حول الدين أنَّ اللاأدريين والمُلحدين كانوا أكثر درايةً واطّلاعاً على أديان العالَم من المؤمنين المُلتَزمين، الأمر الذي يبدو أنّه يشير إلى مستوى أعلى من التفكير حول القضايا المطروحة.

ولكن هناك أمَل، في مقابلة مع شبكة ABS News في 6 حزيران/ يونيو عام 2010، قال عالِم الفيزياء ستيفن هوكينغ، الذي يعتبره الكثيرون أنّه واحدٌ من أهم وأعظم العقول العلميَّة في عصرنا أو في أي عصرٍ آخر: ((هناك فرقٌ جوهريٌّ بين الدينِ الذي يقومُ على أساسِ السلطة والمرجعيَّة، والعلم الذي يقوم على الملاحظة والعقل؛ العلم سينتصر ويفوز في النهاية لأنّه ناجح))، كما يعلم معظم الناس، بدون مساعدة العلم، كان هوكينغ قد استسلم منذ فترة طويلة لمرض التصلّب الجانبيّ الضموريّ ALS أو مرض Lou Gehrig بغضّ النظر عن عدد الأشخاص الذين يصلّون من أجله، وبدلاً من ذلك، بقي عقله سليماً ويستمرّ بالتعليم والتدريس، بمساعدة مجموعة من الأدوات التكنولوجيَّة.

كما هو موضّح في هذا الكتاب، يوضّح لنا العلم -وتحديداً علم الأعصاب المعرفيّ الاجتماعيّ- كيف ولماذا تولّد العقول البشريَّة المعتقدات الدينيَّة، أكثر من مجرّد مخطّط واضح، ومع كلّ يوم يمُرّ، تظهر للآليَّات النفسيَّة وعلم الأعصاب وتستمرّ الكيميائيَّة العصبيَّة للدين في التركيز بشكلٍ كبير.

لَنْ يمُرَّ وقتٌ طويل قبل أن يقومَ جون أو جين سكوبس وآخرون بتدريس علم الأعصاب المعرفيّ التطوّريّ للدين في حصص العلوم أو علم النفس في المدرسة الثانويَّة العامَّة، حين يتمّ تدريس هذه المواد في الفصول، يمكنك المراهنة على استجابة المسيحيين الأصوليين في الولايات المتّحدة، سوف يمضون بها إلى المحكمة، وسوف يتمّ النظر في القضيَّة في نهاية المطاف في محكمة فيدراليَّة، وربّما المحكمة العليا، يجب أن نرحّبَ جميعاً بهذه المحاكمات ونحتفي بها؛ إذ إنّها ستخلق جمهوراً أوسع لهذه الاكتشافات حول كيفيَّة توليد العقول البشريَّة للمعتقدات الدينيَّة والحفاظ عليها، إذا كان التاريخُ دليلاً ومُرشداً لنا بأيّ شكل من الأشكال، فإنَّ العلمَ -في هذه الحالة، علم الأعصاب المعرفيّ التطوريّ للاعتقاد الدينيّ- سينتصر بالنهاية بشكلٍ حاسم.

قد يوفّرُ الدينُ الراحةَ النفسيَّةَ في عالَمٍ قاسٍ، وقد يعَزّز المجتمع، وقد يُحَرّض على الصراع والحروب الدينيَّة من جهةٍ أخرى، باختصار، قد يكونُ للدين منافعه الخاصّة لغايات الخير أو

الشر، ولكنَّ الدينَ ابتكره البشر أنفسهم، وسيغدو العالَمُ مكاناً أفضل إذا توقّفنا عن الخَلط بينه والحقيقة.

الفصلُ العاشرُ (ملاحظاتٌ مُكَمِّلَة)

كَتَبَ ماثيو تشابمان، حفيد حفيد حفيد تشارلز داروين، قصصاً شخصيَّة عميقة عن محاكمة سكوبس في كتابه «محاكمات القرد: مذكّرات عَرَضيّة» Chapman, «*trials of the Monkey: And Accidental Memoir*» (New York: Picador, 2000)، ومحاكمة دوفر، «أربعون يوماً وأربعون ليلة» *40 Days and 40 Nights* (New York: Harper Collins, 2007).

أدلى كينيث ميللر، عالِم الأحياء بجامعة براون وواضع كُتُب المناهج المدرسيَّة بشهادته خلال محاكمة دوفر:

س: هل نظريَّةُ التطوّر مناقضة للدين؟

ج: أنا طبعاً لا أؤكّد ذلك، وقد كَرّستُ كتاباً كاملاً لمناقشة أسباب عدم اعتقادي أنّها كذلك.

س: ألا يحتجّ بعض العلماء في مناقشاتهم ليقولوا أنَّ العلمَ والتطوّر في الواقع يُناقضان الدين، وأنّهما ضدّ الله؟

ج: نعم، إنّهم يفعلون، ويمكنني حتماً التفكير في عدد من الأمثلة المحدّدة وعلماء الأحياء التطوّريون المتميّزون أمثال ريتشارد دوكينز أو الفلاسفة الذين كتبوا عن التطوّر مثل دانييل دينيت أو وليام بيلي، ولكن كما أسلفتُ سابقاً، من المهم جداً فهم أنَّ كلَّ كلمة تخرج من فم عالِم ليستْ بالضرورة عِلماً، وكلّ كلمة يقولها المرء عن معنى أو أهميَّة النظريَّة التطوريَّة ليستْ

علميَّة بالضرورة. على سبيل المثال: كان ريتشارد دوكينز بليغاً في قول ذلك، بالنسبة إليه، إنّ فهم حقيقة أنَّ الحياةَ وأصل الأنواع لهما سبب مادي تُحَرِّرُهُ من الحاجة إلى الإيمان بكائن إلهيّ.

لا أعرف إذا كُنتُ بليغاً مثل ريتشارد دوكينز، لكنّني عملتُ بِجِدّ وبطريقتي الخاصة لأقولَ أنّه بالنسبة إليّ، فإنّنا متّحدون خلال سلسلة طويلة وضخمة من الوجود مع كلّ كائن حَيّ آخر على الكوكب، وهذا يؤكّد إيماني ويُرَسّخه بالهدف الإلهيّ وبالخطّة الإلهيَّة، ويعني أنّه حين أذهب إلى الكنيسة كلّ يوم أحد، أشكرُ الخالِق وأحمده على هذه الأرض الرائعة والواسعة والمِعطاءة، وعلى عمليَّة التطور التي أنتجَتْ مثل هذا الجمال وأدّتْ إلى مثل هذا التنوّع الذي يحيط بنا؛ هذه هي مشاعري، كما هو الحال مع دوكينز، لكنّني لا أتحدّث من منظور علمي هنا، ولا أتكلّم بصفتي عالِماً، وهذا ما أعتقد أنّه الفارق الحَرِج بيننا.

س: إذاً لقد كَتَبتَ كتاباً كاملاً يستكشف هذا التقاطع بين العِلم والإيمان؟

ج: هذا صحيح... الآن، أنا أؤمن بذلك بشدّة، لكنّني أدرِكُ أنّ آرائي حول هذا الموضوع ليستْ عِلماً وليستْ علميَّة ومِهَنيَّة، شريكي في تأليف الكتاب، جوزيف ليفين، وهو أيضاً شخصٌ متديّن، كما ينبغي أن أخبركم، لديه آراء مختلفة عن الإيمان، وينتمي إلى ديانة أخرى مختلفة، ويتبع تُراثاً دينيّاً مختلفاً عن تراثي الذي أعتنقه، أنا وجو لدينا احترام كبير للدين، كلانا يعتقد أنَّ نظريَّة التطوّر متوافقةٌ تماماً مع معتقداتنا الدينيَّة المختلفة، لكنّنا نُدرك أيضاً أنّ معتقداتنا الدينيَّة ليستْ علميَّة، وأنّها بالأحرى فلسفيَّة ولاهوتيَّة وشخصيَّة للغاية، وعلى هذا النحو، فهي لا تَندَرِج تحت مناهج العلوم، ولا تنتمي إلى أيّ كتاب علميّ.

استنتجَ القاضي جون إي. جونز الثالث في قراره بقضيَّة كيتزميللر ضدّ دوفر آريا سكول ديستريكت أنّ ((كلاً من المُدَّعَى عليهم والعديد من المؤيّدين الرئيسين لنظريَّة التصميم الذكيّ يضعون ويقيمون اعتقادهم أساساً على افتراض خاطئ تماماً؛ افتراضهم هو أنَّ نظريَّةَ التطوّر تتناقضُ مع الاعتقاد بوجود خالِق أو كائِن غيبيّ، ومع الدين عموماً، وكما شهد الخبراء العلميون للمدّعين مِراراً وتَكراراً في هذه المحاكمة أنَّ نظريَّةَ التطوّر تمثّل علماً قائماً وصالحاً، وهي بأغلبيَّة ساحقة من قِبَل المجتمع العلميّ، ولا تتعارض بأيّ حالٍ من الأحوال

مع وجود خالِق إلهيّ، ولا تُنكِرُهُ أساساً))

إنَّ ملخّصَ جيري كوين البليغ للتمييز بين العلم والدين: ((الإيمان في الدين يُعتَبَر فضيلة، أمّا في العِلم فيُعتَبَر رذيلة)) مستوحى من مقال له بعنوان: «العلم والدين ليسا أصدقاء»
Jerry Coyne's, «*Science and Religion Aren't Friends*», (a column in the October 11, 2010, edition of USA Today)

إنَّ الأصوليين من جميعِ الأطياف يؤيّدون القتل وكراهية النساء، وإعاقة الحرّيّات المدنيَّة، وحَظر البحوث العلميَّة والطبيَّة المُنقِذَة للحياة، ويشجّعون على «التلقين الإلهيّ» المبكّر الذي يرقى إلى مستوى إساءة معاملة الأطفال. هل سيستيقظ العالَم يوماً من كابوسه الطويل المتمثّل في الاعتقاد الدينيّ؟ يستخدم الأصوليون المسيحيون والجهاديون الانتحاريون وأنصار نظريَّة الخَلق ومنظّرو أطروحة التصميم الذكيّ جميع الأجهزة الإلكترونيَّة الحديثة التي هي نتاج العلم وتطوّره، لكنّهم يتجاهلون حقيقة أنّ العلمَ نفسه الذي ينظّم عمليَّة تدفّق الإلكترونات في الهواتف النقّالة وأجهزة الحاسوب يَكشف لنا كيفيَّة عمل الكون أيضاً.

تُعَدُّ الأجهزةُ الإلكترونيَّةُ الحديثةُ جزءاً من العلم نفسه الذي يؤكّد على الانتقاء الطبيعيّ ويَكشف عن أصولنا وتاريخنا التطوّريّ من رئيسيات وبشر أوائل، ولا يترك أيّ مجالٍ للتدخّل الإلهيّ، أو أرض عمرها ستة آلاف عام، أو عالَم مَبني من قِبَل مُهندس معماريّ، أو مقاوِل خلال أسبوع واحدٍ فقط.

يكتب تيم فولجر مقدّمات لأفضل الكتب الأمريكيَّة عن العلم والطبيعة لعام 2004
Tim Folger, foreword to The Best American Science and Nature Writing 2004 (New York: Houghton Mifflin, 2004)

ملاحظةٌ من الكاتب

إذا أعجَبَكَ هذا الكتاب الضئيل الحجم وأثار فيك الاهتمام حول مناقشات أخرى جديدة عن الدين، لابدّ أنّك ستجد المتعَةَ والفائدة في ما يلي:

- www.richarddawkins.net
- Ayaan Hirsi Ali, «*infidel*» (2007) and «*Nomad*» (2010)
- Richard Dawkins, «*The God Delusion*» (2006)
- Daniel Dennett, «*Breaking the Spell*» (2006)
- Sam Harris, «*The End of Faith*» (2004), «Letter to a Christian Nation» (2006), and «*The Moral Landscape*» (2010)
- Christopher Hitchens, «*God is NOT Great*» (2007), and «The Portable Atheist» (2007)

قاموسُ المصطلحات

فيما يتعلّق بالآليّاتِ الرئيسة لأدمغتنا التي تَنشَط لتوفّر لنا الاعتقاد الدينيّ:

-الرابطةُ *Attachment*: هذه الحاجةُ الإنسانيَّةُ الأساسيَّةُ هي التي تحدّد أساس الدين، ومُكَمّلة للدين أو بديل للأسرة.

-سذاجةُ الطفولة *Childhood Credulity*: كلّنا نؤمن بسهولة، مع القليل من الأدلّة، الأطفال أكثر عِرضَةً لهذا الخطر، خاصةً حين يتمّ تعليمهم وتلقينهم من قبل شخصٍ يثقون به ويتمتّع بسلطة عالية.

-الإشاراتُ المُكلِفَة *Costly Signaling*: يجب على الشخص الذي يجلُدُ ظهره حَدَّ التقرّح أن يلتزمَ بإيمانه، وسيكون حَليفي الموثوق إذا آمَنتُ أنا أيضاً.

-الإدراكُ المُنفَصِل *Decoupled Cognition*: يَسمَحُ لنا بإجراء تفاعل اجتماعيّ معقّد في أذهاننا مع شخصيَّة أخرى مفارِقة وغير مَرئيَّة.

-احترامُ السلطة *Deference to Authority*: نحن جميعاً نَميل إلى احترام رموز السلطة والمرجعيَّات أكثَر ممّا نَحترِم أو نُقَدّر أنفسنا.

-الأحلامُ *Dreams*: ربّما تكوّن الإدراك الأصليّ الذي تَمّ تأويله كدليل على وجود عالَم آخر مُختلف من الآباء والأجداد السابقين.

-أداةُ كشف الوكالة النشطة *Hyperactive Agency Detection*: هذا يقودنا إلى افتراض أنّ القوى المجهولة هُم عُملاء بشريون، لقد تطوّرتْ هذه الأداة لحمايتنا، فنحن نُخطئ عادةً بين الظّلّ واللّصّ، لكنّنا لا نُخطِئ بين اللّصّ والظّلّ؛ إنّها تشجّع على التجسيم الإنسانيّ *anthropomorphism*.

-سيكولوجيّة القَرَابَة *Kin Psychology*: نحن مجبورون ومفطورون على تفضيل أقاربنا على الآخرين.

-قصديّة *Intentionality*: تتيح لنا التكهّن بأفكار الآخرين ونواياهم حول أفكارنا ورغباتنا ومعتقداتنا ونوايانا.

-التفكير الحَدسيّ/ البدهيّ *Intuitive Reasoning*: يساعدنا هذا النمط من التفكير على «مِلء الفراغات» منطقيّاً.

-ثنائيّة العقل/ الجسد *Mind-Body Dualism*: تسمَح لنا هذه الثنائيّة بفصل العقل عن الجسد والإيمان بوجود «الروح».

-العَوالِمُ المفتقرة للحَدّ الأدنى من العقلانيّة *Minimally Counterintuitive Worlds*: تسمَح لنا بالإيمان بما هو خارِق للطبيعة والأفكار غير المعقولة، طالما أنّه ليس «فائقاً أو خارقاً» ولا ينتهك الكثير من المبادئ الأساسيّة الإنسانيّة.

-العصبوناتُ المرآتيّة *Mirror Neurons*: نحن نشعر -حرفيّاً- بآلام بعضنا البعض، وهذا أمرٌ فطريٌّ لم يبتكره الدين، لقد وُلِدنا ونحن نَهتَمّ بالآخرين.

-أنظمةُ الشعور الأخلاقيّ *Moral-feeling Systems*: تولّد هذه الأنظمة قراراتنا الأخلاقيّة، وهي أنظمة غريزيّة وأخلاقيّة؛ لأنّها تعملُ إلى حَدٍّ كبيرٍ خارج نطاق الوعي، ويمكن للأديان أن تدّعي مُلكيّتها وتصرّ على أنّنا أشخاصٌ عقلانيون فقط حين نكون متديّنين.

-التفكيرُ الوقائيُّ *Precautionary Reasoning*: دِرهَم وقاية، خَيرٌ من قنطار علاج.

-الغائيَّةُ المشوّشةُ *Promiscuous Teleology*: تنشأ من تحيّزنا لفهم العالَمِ على أنّه ذو غاية أو هَدَف.

-الإيثارُ المتبادلُ *Reciprocal Altruism*: حكّ ظهري، أحكّ ظهرك.

-سلوكٌ طقسيٌّ *Ritual Behavior*: يعزّز هذا السلوك تماسك الجماعة ويضع قيَمَها والتزامها موضع الاختبار.

-الحُبُّ الرومانسيُّ *Romantic Love*: يقعُ الناسُ في حُبّ يسوع، أو أيّ شخصيَّة مقدّسة إلهيَّة يختارونها، سيتعيّن ذلك بالقدرات العقليَّة نفسها التي تقودهم إلى الارتباط.

-الغناءُ والرقصُ *Sing and Dance*: هاتان الآليتان توظّفان الكيمياء العصبيَّة لدينا، والتي تخفّف من الألم ومشاعر الخوف وتزيد الثقة بالنفس والحبّ واحترام الذّات والتعاضد.

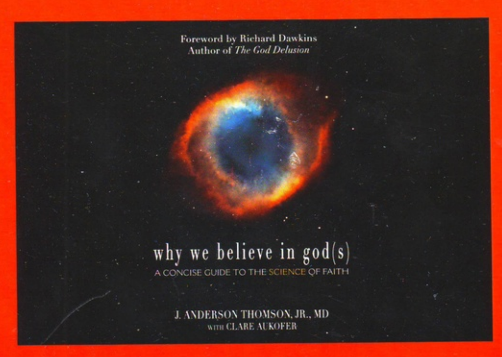
-نظريَّةُ العقل *Theory of Mind*: تَسمَح لنا «بقراءة» أفكار الآخرين وتوقّع رغباتهم ومعتقداتهم ونواياهم المُحتَمَلَة.

-إنقال/ تحويل *Transference*: يمكننا تقبّل الشخصيَّات الدينيَّة بسهولة كما تقبّلنا الشخصيَّات العائليَّة التي نعرفها منذ ولادتنا، كما أنّنا ننقل أفكارنا العائليَّة إلى الشخصيَّات الدينيَّة أو المقدَّسة.

مُلاحظاتٌ مكمّلةٌ للفصول

الفهرس

تصديرٌ: بقلم ريتشارد دوكينز.......................... 5
مُقدّمة.. 11
1. في البدء كان العالَم: ميلنا إلى الإيمان 17
2. على صورته: التطوّر للمبتدئين 27
3. خُبزَنا كَفاف يومنا: التوّق لوَصِيّ 39
4. كلّ ما هو مَرئيّ وخَفي: تصوّر الأرواح..................... 49
5. لأنّ الكتابَ المقدّس يقول ذلك: الإيمان بإله مرئيّ 55
6. وخَلّصنا من الشّرّ: أنسَنَة الله (الآلهة) 67
7. لتَكُن مشيئتُكَ: الخضوع لشريعة الله (الآلهة)................. 81
8. حيثما اجتَمَعَ اثنان أو أكثر منكم: توظيف كيمياء الدماغ عبر الطقس.......... 91
9. يا قليلي الإيمان: اكتشاف الدليل الفيزيائيّ/ الماديّ لله (الآلهة) بوصفه نتيجة ثانويَّة.. 117
10. لئَلّا تُحاكَموا: تثقيف عقولنا 129
-ملاحظةٌ من الكاتب 137
-قاموسُ المصطلحات.. 139
-ملاحظاتٌ مُكَمّلةٌ للفصول 142



في هذا الكتاب الرائد ، يقدم J. Anderson Thomson، Jr. ، MD ، مع Clare Aukofer ، دراسة موجزة وشاملة عن كيف ولماذا يولد العقل البشري المعتقد الديني. يقوم الدكتور طومسون ، وهو طبيب نفسي ممارس يحظى باحترام كبير ولديه أوراق اعتماد في الطب النفسي الشرعي وعلم النفس التطوري ، بالتحقيق المنهجي في مكونات وأسباب المعتقد الديني بنفس الطريقة التي يبحث بها أي عالم في حركة الأجسام الفلكية أو تطور الحياة بمرور الوقت - أي كظاهرة طبيعية بحتة. فيقدم أدلة دامغة من علم النفس وعلوم الأعصاب الإدراكية والمجالات ذات الصلة ، قدم مع السيدة أوكوفر حالة يسهل الوصول إليها ومقنعة بشكل استثنائي. يرسخ الدكتور طومسون نفسه كمفكر يجب قراءته وصوت رائد في أولوية العقل والعلم .

التوزيع في الوطن العربي و العالم



